عبدالله النجّار

مذهب الدروز والتوحيد



مذهب
الدّروز والتوحيد

تأليف

عبد الله النجّار

سفير لبنان . مدير معارف جبل الدروز سابقاً

دار المعارف بمصر

١٩٦٥

أبواب الكتاب

المقدمة

يخيّل لى أن أوّل ما يتبادر إلى ذهن القارئ ، وهو يتصفّح كتابى ، هو هذا التساؤل :

ما بالُ واضعِه يعالج موضوعًا مذهبيًّا ، فى هذا العصر العلمانى ، حين أعيدَ الدين إلى قواعده ، تُمارَس مناسكه فى معابده ، وتحصر دراساته فى معاهده ، إهماداً لجذوات النعرات ، وإرساءً لحياة المجتمعات ، على صعيد الإخاء الإنسانى ، والتواصى القومى ؟

لماذا ينكفئ بنا إلى صفحاتٍ ، تُشيح مدنيّةُ الحاضر عن الاشتغال بها ، بعدما ملأت دنيا الماضى ضجيجًا وصخبًا ، وأفعمته ويلاً وحَرَبًا ؟

وما يدعوه للكشف عمّا بات على الدهر مكنونًا مستورًا ، حين يجمل أن يُطوى من أمثاله ما كان مكشوفًا منشورًا ؟

أما كفانا فى الأرض ما نحن فيه من نزاع على البلْغة ، وصراع على تقويم الأوَد ، وتهالك على الحطام ، حتى يُقحِمنا فى غيبيّات ، من عالم الخفاء والنَّجاء ، لا طائل تحتها ، ولا جدوى منها ، وكم أقامت من الفواصل والحوائل وأثارت من البلايا والرزايا فى أمةٍ ، جمع الله فيها أكرم النبوءات ، وأغدق عليها أقدس الرسالات ، فحوّلتها إلى أسباب للخلاف والشقاق والتنافر والافتراق ؟

على ذلك أجيب : أن العقل الإنسانى الذى بسط سلطانَه على الآفاق ، واخترق سحيق الأجواء ، وافتضّ أسرار الأفلاك ، وسبر الأغوار ، وفتّق الذرّات وسارت مراكبه الفضائية تسبح بين أبعاد النجوم ، يعزّ عليه أن تعصيه أسرار مطويّة لديه ، تحت صفحات رقاقٍ بين يديه .

والتحدّى الذى حفز رُوّاد الفيافى والقفار ، ودفع غُوّاص المجاهل والبحار ، يأبى على الفكر أن يرتدّ خائبًا عن باب مُوصَد ، أو سرٍّ مغلق ، وهو ما عناه

قاهر « إفرست » ، حين سُئِل عما حداه إلى تسلّق تلك القمة العاصية ، إذ قال : « لأنها قائمة هناك » !

فكيف إذا كان ذلك المجهول وراء ستار شفّاف ، لا يكلّفه عناءً ، وتحت صحائف مهلهلة لا تكبّده بلاء . إنْ هو أعرض عنه ، تولاّه الوهم بالظنون من بعيد ، وصوّب إليه سهام الريب والتشكيك ، وعالجه بالحدس والتخمين . وأثار دونه عواصف الكراهية وريح العداء . والناس أعداءُ ما جهلوا .

لقد دارت الأقلام حول هذا الموضوع ، منذ قرون ، بما يشبه الاكتفاء ، دون أن ترفع عنه الغطاء ، أو توليه ما يستحق من تمحيص واستقراء ، كما يُثْيرُ المستطلعُ نَظَرَهُ إلى ما وراء النقاب ، يزيّن له وهْمه ما يشاء . وكم أخفى النقاب من محاسن أو بشاعات ، وأبدى السفور من وضح الملامح وبيّن القسمات .

كل هذا وأصحاب المذهب يتأبّون الكشف عنه حفاظًا واستتاراً ، لا تأبُّهًا واستكباراً ، فقد أغلق في يقينهم الباب . . وطُوِي الكتاب . . فأيُّ شأن للناس بما بينهم وبين الله ؟ ! ! وما همّهم ما يشاع حولهم ويذاع من تهم وافتراءات ؟ ! حتى إنهم يكتمون أسراره عن السواد الأعظم من ملّتهم . لا يطلعون عليها إلا كلّ مختار أمين ، مشهودٍ له بصحّة اليقين ، في مراحل تثبُّتٍ وامتحان ، أشبه ما تكون بأساليب الدخول في الماسونية ، والتدرّج في مراتبها . بما فيها من علامات وشيات ، ورموزٍ وإشارات .

ولكن الناس — كما يقول العلاّمة محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي — « ما زالوا مختلفين منذ القديم في حقيقة الموحّدين أبناء هذا المذهب . وكان بعض المتعصّبة ، ممن يرون الكذب على المخالف من السياسة والكياسة ، يتقوّلون عليهم . ويحطّون من مكانتهم ظلمًا وافتئاتًا . . . وما أضرّ السياسةَ إذا كانت تُباعد بين أجزاء الأمة الواحدة » .

أو كما يقول الشاعر العالم رئيس المجمع بعده ، خليل مردم بك ، وهو من أعلام الإسلام : « ومن الناس من جاوز مهيع البحث إلى ترّهات التلفيق ، فقنع بتدوين الأقاصيص والتكاذيب مما تلوكه ألسنة العجائز والصبيان ومن في

طبقتهم ، شأن بعض أصحابنا المستشرقين فى كثير مما يكتبون عن الشرق : ومنهم من لجأ إلى الفرية فاختلق وافترى ما شاء . كل ذلك وبنو معروف معتصمون بالصمت ، كأنهم يتأثمون من الإفصاح بشيء عن كنه مذهبهم ، إلى أن أخرج أحد كبار فضلائهم هذا الكتاب» (يعنى به كتابى « بنو معروف ») .

وكان المؤتمنون على هذه الفلسفة الباطنية ، وحفظتها ، مستغرقين فى هناءة دفئها ، يتنغمون بتلاوة رسائلها ، ويسيغون تكرارها واجترارها . ومعظمهم لا يكلفون أنفسهم عناء فهمها ، واستجلاء غوامضها ، وفك رموزها ، وحل طلاسمها . أما القلة التى ألمت بسر الدعوة ، وأحاطت بكنه الرسالة ، فقد أبت عليها منزلتها الروحية أن تفضى بما تعلم إلى غير المؤهلين المستكتمين . وحجتها فى ذلك أن باب الاستجابة للدعوة أغلق منذ قرابة ألف عام . فأية فائدة روحية ترجى من فتحه ، وهى لا شأن لها بالمستطلعين؟ ولم تبال — وربما لم تعلم — بالمفترين .

ونظرت الكثرة إلى هذه القلة نظرة تهيب واحترام . خشية إزعاجها فى معتكفها ، أو تحامياً لنقمتها ، وتحاشياً عن غضبتها ، فلم تقحم النخبة المفكرة نفسها فى ما هو من شأن سدنة الإيمان ، وإن فرطوا فيه ، ولم ينبروا للدفاع عنه ، حتى قرع العلم باب الإيمان ، لإنصافه بالنظرة الموضوعية ، ونفض ما تكاثف عليه من غبار ، وفحص ما تضاربت حوله الآراء والأفكار ، فلم يبق ما يبرر ستره فى زمن تنصرف فيه العقول إلى ما هو أجدى من غيبيات لا طائل تحتها بعد عصور من الاختلاف على المجهول .

ومن أولى من أصحاب البيت بتلبية نداء العلم ، وفتح الباب على مصراعيه ، ولو كره المطمئنون خلف جدرانه . فى ذلك تحقيق لرغبة المستطلعين . ومعظمهم من أبناء هذا المذهب نفسه . فقد سألنى العدد العديد منهم عما انطوى عليه ، وما نسب إليه . وما الفائدة من الانتماء إلى ملة دون الاعتزاز بها ، كمن يحمل اسماً لا معنى له ؟

ما أكثر ما جر الكتمان على أصحابه من اجتراء وافتراء ، وتمويه وتشويه . وهو الجزاء العدل لمن ترك لسواه الكشف عما انطوى عليه ، ولم ينبر لتصحيح

ما اتهم به وسُدِّد إليه، في فوضى اختلاط الغث بالسمين ، والأنيض بالغريض، واستسلامُ الأخْذ للعطاء ، دون تمحيص أو استقراء .

لهذا أخذت على عاتقي جلاءَ ما يبدو من مفارقةٍ بين قومٍ ما برحوا يخوضون عباب التاريخ بأروع مفاخر الإباء ، وسِيَر الفداء، وبين ما يكتبه عن عقائدهم ، من وصْفِ ماكر ، وتزوير سافر ، كتّابٌ أضمروا العداءَ . أو ما ينقله مؤلّفون من تواتُرِ الظنون .

لعلي بهذه المحاولة أضمّ إلى المكتبة العربية ما لا غنى لها عنه في تكاملها ؛ غير زاعمٍ أني أغنيها عمّن هم أكثر مني كفاءة لسدّ فراغٍ فيها طالما شكت منه . فإني سأبسط ما اطّلعت عليه ، ودقّقت فيه كلّ التدقيق ، من قواعد المذهب وفلسفته . وأنا غير مستكتَم لها ، ولا مؤتمنٍ عليها . فأكون ، بما أفعل ، أصدقَ في حقّها ، وآمنَ لذمامها ، من أولئك الملتحفين بها المتزمّلين بكتمانها ، الحابسين لها عن النور ، إن لم أقُلْ وائديها .

من يدري ؟ فقد تقوم عليّ قيامتهم ، وتُصَبُّ نقمتهم ، حين أبسط أمام الناس فلسفة هذا المذهب ، وأعلن أسراره ، بنفس راضية ، وقلب مطمئنّ . لكنّ لي بينهم ، بَلْ في مقدّمتهم ، سدَنةً عارفين يؤيّدونني ، وهم يعلمون أني أؤدّي أجلّ خدمة لأبناء المذهب ، وغير أبنائه ، على السواء ، لم يُقْدِم عليها أحد قبلي ، آليت على نفسي تأديتها بتجرّدٍ تام ، بعد كثير من المشقة والتحقيق المرهق .

فقد استعنت بما وصلت إليه يدي من الكتب والرسائل وشروحها ، وبما أفضى إليّ به فضلاءُ الأشياخ الثقات ، وبما جاءَ في كتب المحقّقين من الغربيين ، مستشهداً بالنصوص من مصادرها الأصلية ، بأمانة كليّة ، لم أُسْبَق إليها . أقول هذا دون ادّعاء أو اعتداد ، وأنا مع ذلك معترف بعجزي عن الإحاطة التامّة . أسأل الله الرشاد والسداد ، وأردّد مع الشاعر :

إن المقادير إذا أسعفَتْ ... ألحقت العاجزَ بالقادر

الملّة والأمّة

درس نحلة من النحل ، أو ملّة من الملل ، يختلف جدّ الاختلاف عن درس أمّة أو قوم . فلكلا الدرسين أبوابه ومناهجه ، وأسبابه ونتائجه . اللهمّ إلاّ في اجتماعهما معاً ، وفي ما ينجم عن ذلك الاجتماع من تفاعل ، وتجاوب بينهما ، واشتراك في تكييف حياة المجتمع ومظاهره .

نقصد بالملّة طائفةً من الناس ، تذهب مذهباً خاصاً في عقائدها الدينيّة . وبالأمّة شعباً ذا تاريخ خاص لحياته القومية . ونعتذر بالحاجة في الاصطلاح إلى أساتذتنا المتوسّعين ، ونعوذ بهم من الغلاة المتشدّدين .

وليس من تماسٍ بين الدرسين ، إلا عندما تتألّف الأمّة من ملّة ، أو ملل ، وهي لا بدّ متألّفة ، أو حين ينتشر فيها ، أو في بعضها ، مذهب دينيّ ، فيكون له إذ ذاك أثر في مدنيتها ، ويكون للأمة كذلك ، من حيث حضارتها ومستواها الفكري ، أثر في الدين وممارسة مناسكه .

فإن للأخلاق القومية أثراً بيّناً في عقائد الأقوام ، كما أن للعقائد نفسها يداً في تطوير تلك الأخلاق وتهذيبها . ومظاهرهما مجتمعَين ، غيرها مفترقَين . كما أن مظاهر ذلك الاجتماع تختلف باختلاف البلدان ، وتكوينها العنصري الأصيل . وكم أخفق المبشرون في هدْي الأقوام الجاهلة إلى فهم صراطهم في الدين . كما يقول الفيلسوف الإنكليزي « هنري بكْل » . ذلك لأنّهم إنما بلغوه بمرتبة عقليّة وخلقيّة غير مرتبتها ، ومستوى غير مستواها .

والأمم في رقيّها تتبدّل مناهج عقيدتها ، وتتطوّر أشكال مناسكها وتعبُّداتها ، وقد تُسفر مناحي اتجاهاتها عن تعدّد الفرق الدينية ، كما حدث في الإسلام والنصرانية ، أو عن استبدال بدياناتها الأصليّة ، وإقبال على ديانة هي أكثر ملاءَمة لها في حالها تلك .

وكثيراً ما كان الاضطراب الاجتماعي ، والخلل القومي ، من البواعث على

إيجاد شريعة تكون صلةً أو وسَطاً بين شريعتين متباينتين من أصل واحد . وأحسبى موافقاً . فى هذا الرأى . القائلين بخلْق الحاجة جديدَنا . وما دام العالَم فى جدَد النشوء . فالحاجة وليدة نموّه ، وأمُّ اختراعه . ولا أستثنى من بـَناتها العقائد ، لأنها تولَـد .

تغنينى بساطة هذه الحقائق عن التماس الشواهد . حسْبك منها فِعْل الإسلام فى حضارة العرب . فهو ، بما بثّ من روح الجماعة ، وشحذ من شـَبَوات البلاغة ، وأطلع من أنوار الهدى ، قد امْتَهَدَ عند العرب يداً فى تمدُّن غلـَّب المؤرّخون عليه النسبةَ الدينية . فقالوا « التمدّن الإسلامي » بدلاً من « العربىّ » . وجمع هذا الاسم تحت لوائه أقواماً مختلفة ، فكان فـَذَّ الأديان فى ذلك . نذكره لبيان ما للدين من أثـَر ، اشتدَّ أو ضؤُل ، امتدَّ أو ضَمـَر .

لم يُطلق على تمدُّنِ قومٍ غير العرب اسمُ الدين . وكان ذلك لأسباب . منها أن الدين كان العامل الأكبر على استعجال ظهور ذلك التمدُّن . أو على إظهاره بذلك الشكل العجيب . ومنها أنه اشتركت فى نسْج بردتِه أممٌ إسلامية لم يكن لها من القومية العربية نصيب غير اللغة ، بها استعربت ، وبالإسلام تحضّرت . وبكليهما أسهمت أيما إسهام .

وكما أن التاريخ لم يحدّثنا عن تمدّن بوذى ، أو برهمى ، أو نصرانى ، وإن هو ورد فيه إسم « الإمبراطورية الرومانية المقدّسة » — التى لم تكن رومانية ولا مقدّسة — فهو لم يحدّث عن دين كالإسلام ، انتشر بمثل سرعة الإسلام ، وأسفر مثلَه عن تمدّن متأثر به ، مَشـِيد على مثل هذا العدد من المِلَل والعناصر .

على أن التاريخ فى درسه المِلل ، غيرُه فى درسه الأمم . ونحن فيما قدّمنا من التمهيد نبغى الفصلَ بينهما ، لحصر البَحْثِ ، لا للقول بانقطاع الصلة وتراخى الأسباب .

الملة والتاريخ

يندر أن تصبح النحلة قوميّةً ، وإن كان للقومية نحلةٌ واحدة ، قد تنتشر فتشمل قوميات متعدّدة ، أوْ تنبثق منها ، فتكون نتيجة من صوب ؛ وعلّةً من صوب آخر . وكلّ ما تولّده حضارة قوم يشترك في إقامة تلك الحضارة ، فإن لم يكن له خاصّة النموّ في المواود ، فهو موجود . والوجود عملٌ قائمٌ بذاته .

يتناول التاريخ أمّةً ، فيبحث في جنسها ، ونشوئها ، وعصورها ، ودولها ، وحادثاتها ، واقتصادها ، وعلومها . وهي أبحاث كان المؤرّخ القديم يدوّنها نقلا عن الرواة ، وبناء على ما يتصل به من الأخبار والمشاهدات . أما المؤرّخ الحديث فيعوّل على مصادر أخرى استقرائية واستنتاجية في إثبات ذلك النقل أوْ نفيه علميًّا . إذْ أيُّ قيمة لما يُروَى ، مثلا ، عن رجل ليس في أخلاقه ، أو الأحوال التي كانت محيطة به ، ما يؤيّد تلك الرواية . فلا يُقال مع الناقلين إن أبا العلاء المعرّي جاحد ، بل يُشار إلى العلل التي هذّبت عقيدته ، وجعلتها نسيجَ وَحْدِها ، وجعلته فذّ زمانه ، وعصاميّ عصره . فهو في الحكم الصحيح ليس ذلك الكافر الهارب من وجه الله ، بل حجة العبقرية المنتصبة في وجه الشمس ، الناظرة بعين العقل إلى أغوار الحقّ .

ويتناول التاريخ ملّةً ، فيبحث في نحلتها ، ومصادرها الفلسفية ، والتطورات الفكرية ، والأحوال الاجتماعية والسياسية ، وطائفة من العلل التي أفْضت بها ، وتضافرت على إبرازها وإخراجها إلى الوجود ، من مكامن النفوس والعقول .

وكم حلّت بها نكبة النقل ، وتعاورتها أهواءُ الرواة ، فجار عليها مؤرّخون ، أو أطنب فيها مؤرخون ، وضاع بينهم المنصفون ؛ حتى انبرى التأريخ العلمي يوسعها بحثًا واستقراءً ، ويمعن فيها درسًا وتنقيبًا .

وهو ، على ذلك ، لا يُنزَّه عن الخلل ، ولا يُعصَم من الزلل ، فإنّ يد المرءِ التي تدوّنه ، يحرّكها عصبٌ من الدماغ ، ولكنّها قريبة إلى القلب ،

متأثرة بمزاج الكاتب وعاطفته ، وإليهما يُعزَى الاختلافُ والتباين فيما لا يُجمع عليه المدوّنون . وكم أعيدَ النظرُ في سِيَرٍ مذمومة لعظماء غابرين ، من أهل الدنيا والدين ، لتصحيحها ، وتبييض صحائفها ، بوحيٍ وطني أو ديني ، مراعاةً لعواطف دينية ، أو تحقيقاً لمصلحة قومية . والتاريخ علمٌ من حيث التدقيق ، وأدبٌ من حيث التطبيق . فإذا كان العلم مجرّداً ، فالأدب غير ذلك . إنه فنّ التبيين والتزيين .

وأسوأ ما فيه الاجتزاء . والاجتزاء أسلوب منطق سقيم قديم ، أُريدَ به التضليل . يستعين صاحبه بما يلائمه من المسطورات والمرويّات . مستشهداً بها لتأييد وجهٍ من وجوه الجدل . لا يهمّه في ذلك التحقيق ، ولا تعنيه الإصابة والخضوع لقوانين البحث وأصوله . وإنما غرضه الفوز في المناظرة ، ولو بالإيهام والمكابرة . إنه ضرب من ضروب علم الكلام في فوضاه . من آثاره تعدّد الفرق والمذاهب ، لقوله تعالى « لِكُلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ، ولو شاءَ الله لجعلكم أمّةً واحدةً » (سورة المائدة الآية ٥١) .

ولا ننسَ عامل السياسة الأوّل ، الذى كان له الشأن الأكبر في خلق المذاهب وتشعّبها ، والتفريق بين الطوائف وتباعدها .

نشير إلى هذا العبث بالتاريخ ، والإغارة على مواكب أسفاره ، ونحن في صدد الكتابة عن مذهب باطنيّ ، مِن وعورة المسالك إلى مجاهله وخفاياه يُلتَمَس العذر لتيه العابثين ، وخيبة المغيرين .

وسنحصر بحثنا في تاريخه العقائدي . فإنّه لا يَعْدُو كونَه مِلّةً متفرّعةً من الدوحة الإسلامية . قوميّتها عربية . لم يصبها من الاختلاط إلا ما أصاب العرب قبل نشوء مذهبها . ولم يبق هذا المذهب إلا بين العرب في ديار الشام . أما بعد انكفائه وانطوائه على ذاته منذ ألف سنة ، فلم يصبه أيُّ اختلاط . فأبناؤه من أصفى العرب عنصراً وأصحّهم أرومة . لذلك لا يصحّ درسهم باعتبارهم أمة . وإن كان الانتداب الفرنسيّ بعد الحرب العالمية الأولى قد حاول اعتبارهم أمّةً ، بإقامة دويلة لهم في « جبل الدروز » ، فما كاد كابوس الانتداب يزاح ، حتى سمّوا بلادهم تلك : « جبل العرب » . وعادت المياه إلى مستواها . . .

الفرقة والإسلام

طلع القرن الرابع للهجرة (العاشر) على الدولة العباسية ، فإذا هي في دور احتضار طويل ، سنين ، فيما بعد ، ما أسفر عنه من تعدد الفرق والدول ، واشتداد المنافسة بينها ، حتى طمع فيها الروم ، وكادوا أن يستولوا عليها ، لولا أن وقف في وجههم الحمدانيون مثلما وقف الأيوبيون في القرن السادس للهجرة في وجه الصليبيين .

وفيه عزّ جانب الفاطميين ، واتسعت رقعة حكمهم ، حتى شملت الشام والجزيرة وخطب لهم على المنابر ، وبلغ العلم ذروته ، بالرغم من انشغال الدول العربية وتنابذها ، وانقسام الأمة إلى شيع ومذاهب ، فقد كان ذلك العصر عصرَ العلم والفلسفة .

ترافقُ النهضة العلمية نهوض الدولة ، ولكنها لا تضمحلّ باضمحلال تلك الدولة ، بل تستمرّ بعدها ، إلى أن يصل إليها تأثير انقطاع أسبابها . هكذا كان شأن العلم في ذلك العصر . فكما أنه لم يزدهر في عهد أبي جعفر المنصور ، أو المهدى ، أو الهادى ، بل في عهد الرشيد والمأمون ، كذلك لم تذْوِ أزهارُه ، وتَخْبُ أنوارُه ، في عهد الانقسام ، على أثر تقهقر الدولة العباسية ، بل بعد الانقسام بزمن طويل . فقد أثبت التاريخ أن العلم لم يكن أقل شأناً في عهد الانقسام منه في عزّ العباسيين . ونظرة إلى من التفّ حول ملوك ذلك العهد من العلماء ، وما كانوا يتمتعون به من إجلال وحماية وتقريب ، وعلوّ كلمة ، ومِنح وصِلات ، على رغم التأخّر الاقتصاديّ — نظرة إلى كل ذلك تكفي للدلالة على علوّ كعبِ العلم وعزّة جانبه .

إذَن ، فالعصر الذى نحن بصدده كان عصر العلم والفلسفة ، وقد بلغا أوجهما في ظل الفاطميين . ولمّا كان لا بدّ للدين من أن تصل إليه يد العلم ، لاتّصاله بالفلسفة ، كان السبب في تعدّد الفِرَق الدينية تقدّم العلوم .

ولا سيّما علم الكلام، أضف اليهما عامل السياسة . فمن الثابت أن السياسة وراءَ كل انقسام دينيّ . وقد هيأت الناس لهذا الانقسام حياتُهم الاجتماعية ، وما وصلوا إليه من بذخ وترَف واختلاط بالأمم الغريبة .

لا يسعنا تعداد تلك الفرق التي حفل بها ذلك العصر . تكفي الإشارة إلى أسواق المناظرة والجدَل ، وما أثير فيها من نظريات وآراء ، وما تفاقم حولها من قتال وعداء ، كما فعل القرامطة والإسماعيلية والخوارج الأباضيّة . وكانت جميع الفرق تعود في مناظراتها الفقهية والفلسفية إلى كتابها الكريم ، القرآن . ومن هذه الفرق الموحّدون أو الدروز .

من غمرة ذلك العصر شبّت في مصر تلك الفئة من الحكماء ، متأثرة بروحه الفلسفية ، متمتّعةً بحماية الخليفة في انشقاقها من الشيعة الباطنية . وقد كان الخلفاء يستعينون بالمذاهب وأصحابها لبسْط سلطانهم على الأقطار ، وتوسيع رقعة حكمهم في الأمصار .

ولكن يخطئُ من يعزو إلى الخليفة الفاطمي ابتداع هذا المذهب ، وإنْ هو استفاد من استخدامه . فإنه امتداد لموجة ذلك القرن الفكرية ، ووليد الفلسفة التي بلغت النضوج عند العرب . إنه نتيجة لا بدعة . مَن يدرسْه على حدة يقعْ في بُحرْانٍ فكريّ . كيف لا ؛ وهو وليد الباطنية ، والباطنية وليدة الصوفية الشيعية . والشيعية وليدة الإسلام . وكانت المذاهب تبنى على القرآن مناظراتها ومجادلاتها ، المستمدة من الفلسفة ، المرتكزة على علم الكلام . حسْبنا الإشارة إلى الرسائل المتبادلة بين أبي العلاء المعرّي وداعي الدعاة .

من الثابت ، إذن ، أنّ هذا المذهب متفرّع من الإسلام . والإسلام من حيثُ انحصارُه في القرآن ، وعدم خروجه عنه ، هو مدار هذا المذهب الذي يفسّر آياته على طريقته الخاصّة . فهو ليس ديانةً ، وكتبه تسمّى « الحكمة » ، مما يدل على مصدرها الفلسفي ، الحافل بالنقد والتفسير والتحليل والدحض والإثبات والتأويل .

إننا إذا سمّينا دينًا كلّ شكل من أشكال العبادة ، وكلّ نوع من أنواع

فهمها وتفسيرها ، وكل لون من ألوان ممارستها ، كانت الأديان من الكثرة بحيث يصعب إحصاؤها ، بل بحيث تولد مع كلّ حيّ ، وتموت معه . ثم ماذا الإسلام عندئذٍ غير السنّة ؟ وماذا النصرانية غير الكثلكة ؟

إن « التوحيد » صلْب الإسلام ، وهو أيضًا صلْب جميع فِرَقِه ، ولا سيما الدروز الذين يسمّون أنفسهم « الموحدين » . أمّا الانتقال من دين إلى آخر ، فهو انتقال من اعتقاد إلى آخر ، في جوهر المعبود ، كالانتقال عن عبادة الأصنام ، إلى عبادة آلهة عديدة ، إلى إله مركّب ، إلى إله واحد ، وهو التوحيد .

هنالك حجّة أبيْن ، هي أنّ تأويل الفروض الإسلامية ، وتفسيرها ، لا نقضها ودحضها ، اعتراف مبدئيّ بها . وليْس «كإكمال» الناموس الذى جاءَ نقضًا جوهريًّا له ، كما نرى فى تعاليم الإنجيل . وإن كان الدروز يعنون فريق الهدى منهم ، إذ يردّدون الحديث النبوى : « ... تفترق أمّتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى الهاوية إلا واحدة » . على ما فى الترديد من اجتزاء . . .

ولندْخل فى صلب هذا المذهب :

التقيّة

كان « الموحدون » — الدروز — منذ نشأة مذهبهم ، فى مطلع القرن الخامس للهجرة — الحادى عشر للميلاد — محترسين فى كتمانه ، مشيحين عن إعلانه ، صيانة لأنفسهم من الاضطهاد ، ووقاية لها من العدوان ، فى ذلك الزمان .

هذه الفرقة المتفرّعة من الشيعة ، كانت عرضةً لنقمة الشيعة والسنّة على السواء . كما كانت الشيعة نفسُها ، قبل قيام أمرها ، واشتداد أزْرِها ، هدفاً لمجاهدة السنّة لها ، وعدوانها عليها .

فممّا يُروى ، أن معاوية بن أبى سفيان أباح التنكيل بالذين كانوا يدينون بالولاءِ لعلى وأهل بيته . وحذا حذوه فى اضطهاد الشيعة بعض عمّال الأمويين . لا سيما فى ولاية عبيد الله بن زيادٍ قاتلِ الحسين بن علىّ ، وفى ولاية الحجّاج ابن يوسف . فكان التزام التقيّة أوْجبَ وجوه الحذر ، والحيطة من التقتيل والتشريد .

فى هذه التقيّة يتذرّع المتّقون بالآية القائلة : « . . . إلا من أكْرِهَ وقلبُه مطمئن بالإيمان» (سورة النحل : الآية ١٠٦) . قيل إنها أنزلت بعد العذاب الذى وقع على عمّار بن ياسر وإكراه المشركين له على قول السوءِ بحقّ الرسول ، وإنّ الرسول قال له ، حين جاءَ مستغفراً : « لا تبْلِكِ . إن عادوا لك فعُدْ لهم بما قلْتَ » . فكأنه بذلك يزيد لمنْ قيل لهم « ... واحفظونى فى قلوبكم » . .

جاء هذا الكتمان بعد إغلاق باب الدعوة سنة ٤٣٤ هجرية ، مما سنفصّلُه فيما بعد .

فكان الدعاة يوصون أتباعهم بالحذر والكتمان ، حفظاً لسلامتهم من الاضطهاد الذى نزل بهم سنين متواصلة ، بعد غيبة الحاكم ووزيره حمزة ، حتى قُضِى على المذهب فى مصرَ ، موطنِ ظهوره الأوّل ، وحفلت الرسائل

بتحذير المستجيبين منها ، على سبيل المثال ، المنشور الذى أرسل إلى آل عبد الله وآل سليمان سنة ٤٣١ هـ ، فقد جاء فيه : « واستديموا بالسَّتْر لما أوعزناه إليكم . . . وليتدبَّر بالسَّتْرِ لإثبات أسماء المعاملين . . . وليُنفذوا فى ستر وخِفْيَة إلى شيوخ آل عبد الله نسخة هذا الكتاب . . . وإلى شيوخ البستان وإن تعذَّر عليهم من ينهض بذلك . . . »

وكانوا ينصحون لهم بالارتحال إلى حيث يكون لهم ولىٌّ يلطف بهم ، وينصفهم ، ولا يَحيفُ عليهم ، « فإن كان الموضع الذى أنت فيه يصلح للستْرة ، فالمقام . وإن أردتَ الانفساحَ وراحةَ القلب ، فعليك ببلاد الشام » . . (الرسالة ٨٩) ، حيث اعتصمت عشائرهم فى صياصِي جبالها ، بعد أفول نجم الأمويين والعباسيين ، وتراخى حكم الفاطميين الذين أمعنوا فى مطاردة « الموحّدين » بعد اختفاء الحاكم بأمر الله الفاطمىّ الذى رعى مذهبهم .

وسُمِح لهم ، بالحيطة والإنكار ، « عند الإضرار ، والله العالم بما تُظهرون وما تكتمون » ، كما سمح الرسول لعمَّار ، وفقًا للآية الكريمة : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا مَن أكْرِه . . . » أى أنّ المُكْرَه معذورٌ لسانُه ما دام قلبُه مؤمنًا ، فقد تستطيع إكراه امرئ على قول ، ولكنك لاتستطيع إكراهَه على فكْرٍ ، أو إيمان ، أو عقيدة فى القلب .

ولكنهم من فرط ما قاسوا من ألوان الاضطهاد والتعذيب والتقتيل والتنكيل ، رحل أكثرهم عن مصر إلى ديار الشام . وأفضى الخوف بكثيرين إلى الإنكار والتظاهر بالجحود ، بما يشبه إنكار بطرس الرسول للمسيح . وانحاز بعضهم إلى صفوف أعدائهم . فى ذلك تقول « الرسالة ٧٤ » : « فأين تسْميَتُهم لأنفسهم بالموحدين المهاجرين ؟ ! وأين قولهم إنهم أخرجوا من ديارهم بعد القتل والزعْج هاربين ؟ ! » . حتى إنّ بهاء الدين ، كبير دعاتهم بعد الغيبة ، يقول : « وأنا متغرّب ، بعد الهجرة ، بالاضطرار . . . عجَّل الله جزاءَ أهل الردّة . . . ولا تاب على الذين أحْوجونا إلى التغرُّب . . . »

وتصف « الرسالة ٧٤ » المؤرخة فى ٤٣٠ هـ ، ذلك الاضطهاد بهذه العبارات :

« ... آل السفَه الذين رفعوا رؤوس الشهداء على رؤوس الرماح ، وسقوهم كأس الذّباح ، مع من أغرقوا فى البحار ، وأحرقوا بلهيب النار ، وقتلوا الجمّ الغفير ، بعد سبْى النساء والأولاد ، وقطع قلوبهم والأكباد ، وتعليق رؤوس الرجال الموحّدين فى أعناق أخواتهم وبناتهم ، وذبْح الأطفال الرضّع فى حجور أمّهاتهم ، فلم يرعوا لأحد فى الله إلاً ولا ذمّة . . . بل أجروهم على حدّ السيوف قتلاً وصلْبًا ، وفى الشوارع شقًّا لبطونهم ، وجرًّا بأرجلهم وسحْبًا ، ولأموالهم وذراريهم سبْياً ونهبًا . ولم يُجْروهم بأخذ الجزية منهم مجرى النصارى واليهود . بل ذبحوهم كما تُذبَح الجُزُر عداوةً لله . . . فإلى البارى تعالى وإلى وليه المستغاث والمشتكَى ، وإلى رحمته المفزع والملجأ . . . بهذا نطقت صحف الحكمة والأسفار عن اجتماع فرَق الشكّ على قتل الفرقة الواحدة الناجية » . . . .

تشير بذلك إلى « الرسالة ٧٨ » القائلة : « فى ذلك اليوم يصبح الموحّدون هدفًا للاضطهاد ، ويكون القابض على دينه كالقابض على الجمر ، ويفرّ المؤمن بدينه من شاهق إلى شاهق » .

إن التاريخ حافلٌ بأنباء الاضطهاد الدينى ، لم ينْجُ منه أتباع أى دين من الأديان . على أنه لايصحّ أن نُلقِى التبعة فى ذلك على الأديان التى يرتكب تابعوها ، فى جهلهم ، ما تنهى عنه : ولا سيما الدين الإسلامى القائل « لا إكراه فى الدين » ، و« قُل الحقُّ من ربكم ، فمن شاءَ فليؤمن ، ومن شاءَ فليكفُرْ » ، و « ولو شاءَ الله ما أشْرَكوا ، وما جعلناك عليهم حفيظًا ، وما أنت عليهم بوكيل » (سورة الأنعام الآية ١٠٧)

ولكن للحماسة العقائديّة فورات تُخرِج متعصبةَ الأقوام من حدود الوصايا الدينية . ومع ذلك ، إذا استثنينا مكافحة الدعوة «التوحيديّة » فى إبّانها بالشدّة التى ذكرنا ، فإنّنا نجد أن الدروز وسائر الملل الصغيرة المنتسبة إلى الإسلام ، المخالفة لبعض أصوله وفرائضه ، اجتهاداً وتأويلا ، كفّرها بسببهما فقهاءُ السنّة ، ما برحت منذ ألف سنه تحت سلطان المسلمين آمنةً مطمئنّة ،

عزيزة الجانب ، موفورة الكرامة ، على قلّة عددها ، مما يدلّ على سماح الإسلام حتّى فى أوْج سطوته وأيده ، حين كان باستطاعته إذابتهم واستيعابهم ، كما محت النصرانية الإسلام فى إسبانيا ، أو كما ذبح كاثوليك فرنسا فى عيد « القديس » برتلماوس خمسين ألف مواطن بروتستانتى ، ونالوا تهانئ جميع الدول الكاثوليكية ، حتّى إنّ البابا غريغورى الثالث عشر أمر بإشعال الزينات وإعداد الأوسمة لهذه المناسبة .

لقد مضى ذلك الزمن وانقضى ، وأصبح شعار الإنسان الحاضر : « لكم دينكم ولى دين » ، وصار واقع الناس : « إنّا وجدنا آباءَنا على أمَّة وإنَّا على آثارهم مُهْتَدون »

وبقيت التقيّة ، اصطلاحًا ، لا استحياءً . وخَفَراً ، لا وِقاءً .

وآن لها أن تُشْرِعَ باب خدرها للنور ، وأن تستبدل بالنقاب السفور .

تحريف الأقلام

لن أتصدّى لنقد ما كُتِب عن المذهب . ولكن لا بدّ لى من التنبيه إلى ما أدخِل على رسائل « الحكمة » من حشو ، وما وقع من تحريف فى نشر الدعوة ، وما أقحِم للكيد والتشويه . فإن « الدَّرَزي » ، وهو الداعى الأوّل ، بعد ارتداده ، وبسبب حقده على حمزة ، أقدم على تزييف الرسائل ، وإدخال البِدَع ، مما أثار عليه الخليفة الفاطمى ، حتّى أمر بقتله .

واشترك مع نشتكين أعوانُه من الدعاة الذين تآمروا معه على إفساد الدعوة وهم « سُكَيْن » ، و « لاحِق » ، و « مَحَلاَّ » ، و « سهْل » ، « وابن أبى حصّية » ، و « ابن معلاّ » ، وغيرهم كالبرذعى والحبّال .

فوجّه حمزة وبهاء الدين كتباً إلى الأقاليم ، وعلى الخصوص ديار الشام ، يحذّران بها المستجيبين من تحريف التعاليم وكتبها ، ويوعزان بعرض تلك الكتب والرسائل على الدعاة الثقات للنظر فى صحتها وتصحيح ما أدخِل عليها .

رسائل التحذير هذه من كتب « الحكمة » نفسها ، أورِدُ من نصوصها ما يلى :

فى الرسالة ٦٥ يُنَوِّه المقْتَنَى بهاء الدين بارتداد « سكين » الذى كان قد قُلِّد أمر الدعوة على جزيرة الشام العليا سنة ٤١٨ هـ ، وبخروجه عن الطاعة واستقلاله بالسلطة على المستجيبين ، وجعْلِ نفسه من « الحدود العالية » بانتحاله منزلة « الرضى » صاحب السفارة ، أى « الكلمة » ، ويقول :

« ولما فحصت أفعال سكين وجدتها مدخولةً بتغييره لرسائل الحكمة . . . بالزيادة والنقصان . كما فعل برسائل قائم الزمان (أى حمزة) . إلى أن بدّل الميثاق . وابتدع مبتدعات . . . واشتهر بتحريفه . . فاعرضوا جميع ما قِبَلكم من الرسائل على الشيخ الثقة الأمين » . . . ثم يخاطب ذلك الشيخ بقوله : « أيها

الشيخ الثقة اكشف عن حقيقة هذا الخلل » . . .

وفى الرسالة ٧٧ تنديد بالتحريف وابتداع الباطل ، وزخرفة الآيات المكذوبة .

وفى المنشور ١١١ يحذر بهاء الدين من البدع والتحريف ، ويقول « فأنا برىء مما اخترصه . . . ونسبه إلى الدين والإيمان . والبارى يشهد بما أذعته من النهى عما أحدثه "لاحق" و "سكين" و "مصعب" وأمثالهم من المحرمات» . ويودع المؤمنين منبهاً إلى ما حرفه وأدخله هؤلاء المارقون على نصوص الرسائل . هذه الرسائل التى لم توجد نسخها إلا فى بلاد الشام ، لا فى مصر، مركز الدعوة .

وفى الرسالة ٥٧ تحذير ممن « تخرص الباطل . واخترع . . . وشطن وحرف وأزال الكلام عن مواضع الحق بضده » . ولم يكن من وسيلة للتصحيح إلا بمثل هذا التحذير .

وفى الرسالة ٣٨ : « . . . فنهاهم عن التغيير احتساباً لدعوى سكين » .

وفى الرسالة ٧٩ توبيخ للمحرفين الذين زيفوا وشوهوا بعض الرسائل : « فهذه العصابة اختلقت فى الدين ما ليس فيه » . . .

وفى الرسالة ٧٦ أوضح بيان فى « توبيخ ابن البربرية » . . . « هذا المحرف لكتب ولى الحق . . . هذا المعتوه . . . هل أكذب وأخيب ممن بدل بالكذب والبهتان الدين الصحيح » .

للتقريب إلى الأذهان ، ونخص مواطنينا فى لبنان ، نستشهد بالتحريف الخطير الذى أدخل على تعاليم القديس يوحنا مارون ، أول بطاركة الطائفة المارونية ، وناشر عقيدتها ، فإن توما الكفرطابى مترجم كتابه « إيضاح الإيمان » الذى أنفذه إلى أتباعه ، حرف من أقواله ما ندد به المطران يوسف الدبس [فى المجلد الخامس ، الجزء الثالث ، من تاريخ سورية ، صفحة ١٥٦ و ١٥٧] غاضباً بقوله عن المترجم : « إنه تلاعب بهذا الكتاب ، فأسقط عبارات . . . وعبث وعاث — . . بأن عزا إلى القديس القول بالمشيئة الواحدة » .

فمن لنا بمن يبين مواطن ما أشير إليه من تحريف حذرت منه الرسائل التى ذكرناها .

شطط المؤرخين

تعاورت أقلام المؤرخين الذين كتبوا عن هذه الملّة ومذهبها عوامل متعدّدة، فنهم من كتب تشفّياً من غل، ومنهم من رمى، على عواهنه، ما تواتر وشاع، ومنهم من التمس التشويق والترغيب، أو استجاب للطلب بعَرْض السقَط مع السليم.

أغربُهم من ينقل الرواية، دون التثبُّت من صحّتها، وهو أقرب ما يكون إلى مصادرها. لا يكلّف نفسه عناءَ الوصول إلى الأصل، وهو عند متناوَل يديه، لا سيما ذاك الذى ينقل عن الغربيين ما يكتبون عن الشرق، لفرط التعويل على ما يصدر عنهم؛ كما يقول جرجى زيدان، ولفقر مكتباتنا، وضآلة مراجعنا.

أما أولئك المستشرقون فكثيراً ما يخطئون الهدف ويعْدون الصواب فى المواضيع الشرقية التى تتوافَر لها المعلومات والمصادر. فكيف بهم حين يعالجون رموزاً عصيّة الحلّ؛ حفلت بها كتب هذا المذهب الباطنى، حتى استعْصَت على غير المثقّفين فيها، المتفقّهين لأسرارها. فإنها وُضعت للمستجيبين بعد تدرّجهم. وفيها من المطاوى والألغاز مما سأفرد له فصلاً خاصّاً.

من أعلام الغربيين الذين كتبوا عن الدروز أخصّ بالذكر سِلْفستر «دى ساسى» بكتابه «عقيدة الدروز». و «فولناى» واللورد «دَفَرِنْ». والكولونل تشارلز «تشرتشل» الذى أقام عشرين سنة فى هذه البلاد. وجيرار «دى نرفال». ومن المعاصرين «بورون» الذى ترجم كتابه إلى العربية عادل تقىّ الدين. والمحقق الألمانى «مولدّر» بكتابه «درْ إسْلام». جميعهم توخّوا الصواب؛ وإن لم تتمّ لهم الإحاطة.

ولكن بعض المعاصرين أمثال «ادْلر»، و «غبى»، و «كارّا دى ڤو»، وجان وجيروم «تارو»، عوّلوا فيما كتبوا على إشاعات وتقوّلات ومصادر

مشوبة بالأضاليل . حتى إنّ « دى ڤو » يدهشنا ، بل يذهلنا ، باستهتاره ، إذ يقول فى « انسيكلوبيدى إسلام » ما يلى : «إن الدروز ، على وجه الإجمال ، قليلو الدين . . . يزعمون أنهم مسلمون . . . لا هياكل عبادة لهم . . . يقولون بتقمّص الأشرار فى الكلاب ... يسمحون بتعدّد الزوجات ... يقال إنّ الزواج بين الإخوة والأخوات يمارَس أحياناً ... إنهم متهمون بتراخى الأخلاق ، وعبادة العجل الذى يبدو تمثاله فى حفلاتهم !!! » ...

إذا كان هذا الهراء الطائش ، بل الهذر الفاحش ، يُكتَب فى عصر العلم والنور ، فكيف يُلام المتقدّمون على الهفوات ؟ وكيف نعتب على مواطنين ردّدوا هذا الهراء الذى أخذوه فيما أخذوا من العلم والإشعاع عن الغرب ، بعُجَرِه وبُجَرِه ؟ وبعد هذا التشنيع أىُّ عذر بقى للدروز فى تقاعسهم عن إظهار حقيقتهم للعالَم المستطلع ؟ وأىُّ مبرّر يلتمسون لتركها تُشَوَّه هذا التشويه ، وهم عنها قاعدون ؟

من مؤرخى العرب القدماء اثنان لم يقصدا التشنيع على هذه الملّة ، بل تناولا بالنقد من تقدّمهما فى ذلك ، هما « المقريزى » فى « خططه » وابن خلدون فى « عِبَرِه » . وجاء بعدهما مَن سطا حتى على عنوان كتاب المقريزى : « اتّعاظ الحُنفا بأخبار الفاطميين الخلفا » . فاستبدل بلفظ « الخلفاء » « الخلقاء » ، مفسراً إياه بقوله : « الخلقاء – بالقاف – من خلْق الإفك » ، بعد أن حذف لفظ « الأئمة » ، الذى وضعه المقريزى قبل « الخلفا » تأكيداً للمعنى المقصود ، وكان قد ردّ على المؤرخين الذين ينكرون انتساب الفاطميين إلى فاطمة الزهراء [الخطط ج ٢ – ص ١٥٩] . وهو « من المؤرخين السنيين القلائل الذين أيّدوا النسب الفاطمى » – كما يقول الدكتور الشيّال – مثلما أيّده ابن خلدون .

وفوق إنكار النسب يزعم « ابن خلّكان » فى كتابه « وفيات الأعيان » أنّ الحاكم بأمر الله تعصّب للمذهب وسبّ الصحابة ، سنة ٣٩٥ . . . مع أنّ المذهب لم يُوضَع إلا بعد سنة ٤٠٧ هـ . وواضعُه حمزة ، لا الحاكم ،

أى بعد ١٢ سنة من الزعم ... على أن المقريزى يقول إنّ الحاكم عمد سنة ٣٩٥ ذاتها إلى إصدار قوانين بدافع الشعور الدينى ، لإصلاح الأخلاق ، وتطهير نفوس المجتمع من الرذائل [الخطط ج ٢ ، ص ٣٤٢] كما أنه فى السنة نفسها أصدر أمانه المشهور ، وسمّاه « أمان جدّنا محمد خاتم النبيين وأبينا علىّ خير الوصيين » . ويقول ابن خلدون [العبر ج ٤ — ص ٦٠] : « وأما ما رُمىَ به فغير صحيح ، ولا يقوله ذو عقل » . ويضيف الدكتور جمال الدين سرور : « ليس هناك ما يُثبت أن الحاكم ذهب فى تصرّفاته الدينية إلى حدّ الخروج على قواعد الإسلام . . . وعقيدة التأليه مستمدّة من معتقدات متطرّفى الشيعة ، فكان بعضهم يعتقد أن عليًّا وخلفاءه من الأئمة ليسوا بشراً عاديين » .

الأسطورة :

ليس كتابى هذا تاريخاً لأتباع المذهب ، بل للمذهب نفسه ، فإنّ أتباعه مجموعة من العشائر والأفراد الذين استجابوا للدعوة ، فلا يصحّ لهم تاريخ إلاّ منذ بدء الاستجابة ، أى منذ ما يناهز ألف سنة ، لا أكثر ، اللهمّ إلاّ إذا استُفْرِد بعض العشائر والأسر العريقة السابقة للدعوة . أما بعد الدعوة فإنهم فى عزلتهم وامتناعهم عن الاختلاط بسواهم ، على مرّ الزمان ، أصبحت لهم مزايا سلالية ، نكاد نسميها عنصريةً لطول مداها ؛ وفقدوا اسمهم الأوّل « الموحدين » وصاروا يسمّون الدروز ، أو « بنى معروف » كما يفضّلون .

بسبب هذه المزايا والملامح الخاصّة فى معظمهم ، كثر الحدس والتخمين فى أصولهم ، وجمحت الآراء بالاستنباط والحذلقة ، كأنما هى تُعرِض مُسْتَهينةً بفعل ألف سنة فى تطوير جماعةٍ من الناس انطوت على نفْسها ، بأواصر الخِلاط .

فإن بعض الكتّاب الفرنسيين الذين أعجبوا بفروسية الدروز وشممهم زعموا أنّهم متحدرون من « الغاليين» الذين أبحروا من « غارون » فى غرب فرنسا إلى « تساليا » فى مقدونيا ، فشواطئ آسيا الصغرى ، مستندين فى زعمهم هذا

إلى غلبة العيون الزرقاء والبشرة المشرقة فيهم ، وتشابه الملامح « الألبينيّة » ، وأنّ هؤلاء « الغاليين » لجأوا إلى « الجبل الأعلى » الذى كان معقل الدروز فى القرون الوسطى ، بالقرب من حلب ، وإلى لبنان ، الذى كان يسمّى « جبل الدروز » حتّى عهد قريب .

والأسطورة الأخرى التى شاعت فى أوربا فى القرن الثانى عشر . وكان لها أثر فى حسْن العلاقات بين البابا وفخر الدين . ردّدها « بُوجيه سان بْيير » سنة ١٧٦٣م ، وهى أنّ الصليبيين لمّا ضعف شأنهم فى ذلك القرن، ولم يتمكن القائد « درو » وجنوده من الالتحاق بالجيوش المهزومة ، لجأوا إلى العشائر الجبليّة المسالمة لهم ، وباختلاطهم بهم حُرّف اسمهم إلى « دروز » ، (بصيغة الجمع الفرنجى) .

هذه الأسطورة قامت على مصادفة : هى أنّ صلاح الدين قضى قضاء نهائيًّا على أتباع حمزة فى مصر ، فأوغر بذلك صدور إخوانهم الدروز فى ديار الشام ، حيث تجمّع أكثرهم فى الجبال ، خصوصًا حول « حرمون » (جبل الشيخ) . ولما هزم صلاح الدين الكونت « درو » سنة ١١٩٠م قيل إنّ الكونت وجنده لجأوا إلى حماية أبناء تلك الجبال .

ولكن « ڤولناى » ، العالم الفرنسى الذى ظلّ أربع سنوات ، فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، يدرس ، فى مصر وسوريا أحوال شعوبهما ، ينفى هذه الأسطورة بحجة أنه لم يجد أثراً للّغة الفرنسية فى كلام الدروز . ثم إن الدروز سبقوا أولئك الصليبيين بحوالى قرنين . فلم يبق لهذه الرواية سوى احتمال ضعيف واحد غير مستبْعَد، هو أنّ فلول الصليبيين المهزومة التى وجدت الحماية عند عشائر الدروز ، وانقطعت الصلة بينها وبين قوادها وأمرائها ، فى فوضى ذاك الزمان ، اختلطت بتلك العشائر التى لم تكن قد تشدّدت بعزلتها بعد .

أما ما يُروَى عن الأمير الدرزى فخر الدين ، وقوله ، فى منفاه ، للبابا وأهل توسكانيا إنه يَمُتُّ إلى الصليبيين بالنسب ، فهذا ، إن صدق الراوى ، تودّدٌ سياسى إلى عاهلٍ طموحٍ تُرجَى نجدته .

رموز الباطنية

الباطنية مذهبٌ خفيٌّ اتخذه أصحابه وقاءً من نقمة الحائفين والغوغاء ؛ وطوَوْه على معان خُصَّت بها فئة مختارة من العارفين . شَرَعه اليونانيون القدماء ، وحصروا أسراره بالمطّلعين من النبهاء . فهو منسوب إلى أرسطو وأفلاطون وأتباع فيثاغورس .

من هذه المصادر الثلاثة انحدر المذهب إلى الدروز الذين يعتبرون هؤلاء الفلاسفة أسيادهم الروحيين . فطبّقوه على التعاليم الإسلامية : ثمّ حاطوه بالحذر والكتمان حتّى اليوم . كما أنه استهوى سواهم من الفرق الباطنية في الإسلام المنفتحة للتيارات الفلسفية .

إنه في الأصل اجتهاد فلسفي لإدراك الحقيقة الإلهية ، وتجريد للروح من سطحيّة المعتقد الديني ، وشوق صوفيّ للدنُوّ من معرفة الله ، استُعمِل في خلافة الحاكم بأمر الله وسيلةً جانبيّةً لتوسيع السلطة الفاطمية وتوطيد أركانها ، ولكنه لم يملك من الطاقة الاجتماعية ما يضمن له الانتشار حين سلك إلى السياسة طريقًا دينيّة ، وإنْ هو شبّ في النفوس حرارة وجدانيةً كتلك التي تبعثها النزعات الصوفية .

واستعمل أتباعه ألفاظًا واصطلاحات خاصّةً لا يفهم مؤدّاها إلا المؤتمنون على الأسرار ، حفاظًا على سلامتهم من أهل السنة فيما يذهبون إليه ؛ وتسهيلاً لبثّه دون استثارة مَن يخالفهم فيه . فقد اعتبروا بما آل إليه أمر المعتزلة ، حين خالطت السياسة العقيدة ، وتشابكت فروعهما . فكانت الحيطةُ آمنَ لهم وأضمنَ لانتشاره . ولا سيّما بعد تشتُّت دُعاته ، واضطهاد الأتباع في الدولة الفاطمية التي نشأ المذهبُ في ظلها ، ومنها امتدّ إلى سائر الأقطار ، وأصبح الاتصالُ بين مركز الدعوة والأقاليم من أشقّ الأمور ، حتّى إنّ الرسائل التي كتبت بعد عهد الحاكم لم تُستهَلّ بذكره كما كانت تُستهَلّ

الرسائل التى كتبت فى عهده ، ولم يكن فيها ما يدل على المذهب ، بل كانت تبدو عادية ، مبالغة فى التحفظ والاحتراس ، وإغراقا فى الرموز والكنايات .

وإنى مقتبس من رسالتين [٧٨ و ٩٢] ما يبين كيفية استعمال اللغة الرمزية ، وطرافتها فى التستر والحذر :

« فإن كنتم تعتقدون أن هذه الضيعة محبسة على الذى تقولون ... يأمر وينهى كما أوصاه مولاه ، وشرط عليه أن لا يحدث فيها حادث ، ولا يفرط فى عمارتها ، ومتى استخدم فيها من يفرط فيها ، عزله ... فيجب أن تعلموا أنه هو الذى ضمنها . والحصص ليست " لمسعود " ولا لغيره من الثلاثة الذين كتب عليهم الوثائق ... إن هذا الرجل قد أخلف الظن ، وأفسد الضياع ، ولم يعمرها ، وأباح أهلها من القبائح والمناكر ما لم يسمع عندنا ... كل هذا مستور عن صاحب الضيعة حتى آل أمرهم إلى الهلاك ... إنه كان يفرض على الفلاحين أعمالا يؤدونها ويقول لهم أنا أحمله لصاحب الضيعة . لقد كذب ...

« يا إخوة ! إن من يعتقد أن الله حق ، يتحقق أنه لا يستخلف على العالم إلا عادلا منصفا منزها عن الجور والظلم ... فأنصفوا نفوسكم بالتفكر بالحق ومعرفة أهله ... واغتنموا زمان الإمهال ، وتقربوا إلى الله بصالح الأعمال ، قبل طى الصحائف وجفاف الأقلام ... فهذا الوقت الذى قيل فيه " يكون القابض على دينه كالقابض على الجمر " ...

« فارفعوا معنى هذا الكتاب لكل من ذكر أنه يطلب نجاة نفسه ، فى ستر من الثقات ، لئلا يقوم عليكم من يرى أن له أمراً ونهياً ... وليس فى الدين إكراه ولا إجبار ...

« وأنا فى يومى هذا راكب إلى أنطاكية (من معتكفه فى الإسكندرية) ، هارب من سماع هذه الفضائح ... »

ومن الرسالة ٩٢ : « ... إنه خرج من عندنا بالبضاعة ، ونحن به واثقون ... وقد علم الشيخ أيده الله أن التجارة بمصر قد كسدت ... ولم يبق فى كل بلدة غير السمة القديمة والذكر ... »

ثم تُنهى الرسالة بما يلى : « والحمد لله رب العالمين ، وسلامه على رسوله خاتم النبيين ، وآله الطاهرين ، والأئمة المَرْضِيين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل. وقد أرْخت الأسعار بالفسطاط بحمد الله ، والماء فمشرف على كل خير من الزيادة والبركة والأمن » ...

ويجعلون للآيات وللألفاظ معانىَ باطنيّة ليس من الفضول إيراد بعضها وتفاسيرها :

مثلاً ، يفسّرون « وسعَ كرسيُّه السماوات والأرض » من آية الكرسى [السورة ٣ الآية ٢٥٥] بأن الآية هى « العقل » [الرسالتان ٨ و ٢٩] ، و « الكرسى » أو العرش بأنه الوحى أو علم التوحيد المودَع فى العقل .

والكافور فى الآية : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً » [سورة ٧٦ الآية ٥] بأنه النعمة والسعادة والرضى . وهكذا يتناولون بالتفسير الآيات والأمثال مما لا مجال لسرده . وأكتفى هنا بانتقاء بعض الألفاظ :

السماوات السبع هم الأئمة السبعة ، من إسماعيل إلى المهدى . « ملكوت السموات » دين التوحيد . « الصخرة » ، التى بُنِىَ عليها البيت = « العقل » . « السَّيل » محنة الدجال التى لا تقوى على الصخرة . « الاعتراف » = الندامة . « القربان » = العمل الصالح . « جنة المأوى » = دعوة التوحيد . « سدرة المنتهى » = الإمام . « النوران » = العقل والنفس . « الجديدان » = النهار العقل ، والليل الضد . « الودائع » = الأعمال الصالحة . العذاب والثواب = الشرك والتوحيد . الثوب = الستر . الحجاب = الناسوت . الحنادس = الشرائع الباطلة . الحجج = الحدود الأربعة . الطيور الأبابيل = « عبيد مولانا جل ذكره » . الصلاة = صلة القلوب بالتوحيد ...

تنطوى على مثل هذه الباطنية جميع المذاهب ، وإن لم تبلغ هذه الدرجة من التورية . فإن الآية القائلة : « ما جئت لألقى سلاماً على الأرض . ما جئت لألقى سلاماً بل سَيْفاً » [إنجيل متى ، الإصحاح ١٠ ، العدد ٣٤] لا تعنى ظاهر مفهومها . ولا الآية : « إنى جئت لأفرّق الإنسان ضد أبيه ، والابنة

ضد أمها » [العدد ٣٥ من الإصحاح نفسه] . ولا العدد ٢٦ الإصحاح ١٤ من إنجيل لوقا : : « إن كان أحد يأتي إليّ ولا يبغض أباه وأمّه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته ، حتّى نفسه أيضًا ، فلا يقدر أن يكون تلميذاً لي » . ولا قوله : « أما أعدائي ، أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم ، فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدّامي» (لوقا ١٠ عدد ٢١) .

هذه الأقوال تفسرّها « الحكمة » تفسيراً باطنيًّا يختلف عن مؤدّاها اللفظي ، إذْ لا تصحّ نسبة معناها الظاهر إلى مَلاك السلام والمحبّة القائل « أحبوا أعداءكم ... » كما تفسر قول القرآن (الآية ٨٩ السورة ٤ ، النساء) : « فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم» عن المرتدّين تفسيراً يختلف عن ظاهر اللفظ .

وقد وُجّه نقدٌ يتّهم الدروز بظاهر أقوالٍ مماثلة ، أكبر برهان على نفْيه ما يتحلّون به من سماحة في الأخلاق ، ورعْيٍ للذمم ، وصيانةٍ وتعففٍ ، وتكريم لشعائر سواهم . وكم وهبوا رهبان النصارى من أديار وأطيانٍ ، حين كانت لهم اليد العليا في لبنان ، إن لم نقل حين كانوا الأسيادَ فيه حتى إنّه سُمّيَ باسمهم ، وهم أوّل من شيد كيانه السياسي في التاريخ . لا يجحد ذلك إلا الكافرون بالنعمة الكيانية التي يرتعون في بحبوبة امتدادها اليومَ آمنين .

فإننا نسمع من ينسب إليهم أموراً هم عنها مترفّعون، ولها منكرون . ومِنْ أسخف ما نُمِيَ إليّ أنّ حاكم « جبل الدروز » ، الفرنسي في زمن الانتداب ، كان يعتقل من يتنحنَح ، مدّعيًا أن الدرزيّ يقصد بها اللعنة ، وكرّرَتْ هذا الادعاء في منزلي أديبة لبنانية كبيرة نشأت بين الدروز . وهي تعلم أنهم لا يتستّرون في عدائهم ولا يجبُنون . والتاريخ يشهد لهم بأنبل ضروب الفروسية والشهامة والبطولة ، وخوض غمار الثورات ، حتّى في سبيل سواهم . وأقرب مثل لنا على ذلك ثورة سلطان الأطرش من أجل لاجئٍ اسمُه أدهم خنجر اللبناني ، غير الدرزي ؛ والثورة الكبرى ضدّ الانتداب الفرنسي في سوريا ، والدروز فيها قلة حمَلت أعباءَ الكثرة بطولتهم ، وجاوزت نسبة تضحياتهم للقضية العامة ، كلّ حدّ .

مراتب الباطنية

« التوحيد » غير « الباطنية » ، وإنْ هو انبثق منها ، أو انشقّ عنها ، واشترك فى كثير من مراتبها ومناسكها وتعابيرها ، حتى ليتبادر إلى الذهن أنهما عقيدة واحدة . وسنعرض لأوجه الشبه والافتراق فيما يلى من هذه المراتب الروحية بمنتهى الإيجاز والجهد فى الإيضاح .

الباطنية تعتبر « العقل » و « النفس » بمثابة الأب والأم للوجود الإنسانى . منهما يستمدّ سائرُ « الحدود » وجودهم ؛ وهم : « الكلمة » المنبثقة من « النفس » بواسطة العقل . و « السابق » المنبثق من « الكلمة » بواسطة النفس . و « التالى » الذى يستمدّ سلطته وقدرته من السابق . هؤلاء هم الحدود الخمسة .

ولكن فى التقسيم الباطنىّ يطلق نعت « السابق » و « التالى » على الأوّل والثانى من الحدود ، أى على العقل والنفس . فالعقل أصل الوجود . باتحاده بالنفس يتكوّن منطق الحياة ، أى الكلمة ، أو المعرفة التى تنقسم إلى ما سبق منها وما يليه على توالى الأجيال . بهذه المعرفة يرتفع الإنسان نحو « العقل الكلّى » فى طريق الكمال ، إلى نهاية الدهور .

وتُنال المعرفة بواسطة « الجدّ » فى طلب العلم ، و « الفتح » فى ميادينه الواسعة ، و « الخيال » فيما يمكن تصوّره . وهى ترمز إلى متممات الوجود فى مراحل تلك الطريق .

فى شرح هذه العناصر ، وهى خمسة فى الباطنية وثمانية فى التوحيد ، وردَ : أنّ جوهر « النفس الكليّة » ، أى الفعل والصورة ، جاءَ من « العقل الكلىّ » ، أى من العلم والقوّة . ومن جوهر النفس برز جوهر « الكلمة » الذى منه جوهر « السابق » « فالتالى » ، وهما غير السابق الأوّل وتاليه « النفس » الكلية .

ثمّ ظهرت « النفوس الناطقة » من « التالى » . فبرزت الهيولى ، والهيولى جوهر بسيط قابل للصور . هو مادّة الوجود .

وورد فى شرح « السابق » والتالى » الأخيرَين : أن السابق وُصف بالبرودة « لأجل سكن العلم واستقراره ببرودة الحلم وهدوء الوضْع » . ووُصف التالى بالحرارة ، لما فيه من اليقظة ، والحركة ، والشوق لأخذ العلم عن السابق . ولحاجته لإظهار الفوائد لمن هو دونَه أو بَعْده .

إن المراتب الخمس روحانية وجسمانية ، لا يدرك كنْهَ ترتيبها إلا الراسخون فى علم الباطن . فالرسالة « ١٧ » تقول :

« لكلّ حدٍّ ، فى العلوّ روحانىّ . حدٌّ ، فى السّفْل ، جسمانىٍ ، يقوم مقامَهُ . « فالناطق » يقوم مقام السابق . و « الأساس » يقوم مقام التالى . والإمام يقوم مقام « الجدّ » . و « الحجة » مقام « الفتح » . و « الداعى » مقام « الخيال » .

فيكون ترتيبهم كما يلى :

٥ سماويون	بإزائهم	٥ أرضيون
١ ــ السابق	يقابله	١ ــ الناطق
٢ ــ التالى	»	٢ ــ الأساس
٣ ــ الجدّ	»	٣ ــ الإمام
٤ ــ الفتح	»	٤ ــ الحجة
٥ ــ الخيال	»	٥ ــ الداعى

تقول عنهم الرسالة ١٥ : « السابق والتالى والجد والفتح والخيال ، والناطق والأساس والإمام والحجّة والداعى ، كلهم عبيد لمولانا جلّ ذكره ، موجودون فى عصرنا هذا . مشخّصون . . . »

وفى محاولة التقريب بين الباطنية وفرعها التوحيدى ، يُصَنّف الداعى والمأذون والمكاسر ، فى مكان آخر ، بأنهم الجدّ والفتح والخيال [الرسالة ٣٨] هؤلاء الثلاثة مع الخمسة العلويين هم المقصودون بقول حمزة [الرسالة ١٣] إنهم « حملة العرش الثمانية » المذكورون فى القرآن [سورة ٦٩ الآية ١٧]

بقوله تعالى : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » .

أما بهاء الدين [الرسالة ٥٧] فإنه يصنفهم كما يلى :

١ – علة الإبداع ، العقل . ٢ – المشيئة ، النفس . وهو أول الحدود الأربعة الذين يلونه ، باعتبار العقل فوقهم جميعاً ٣ – المثنى ، الكلمة ٤ – الثلاث ، السابق ٥ – الرباع ، التالى .

ويلى هؤلاء : ١ – الدعاة ٢ – المأذونون . ٣ – النقباء ، أو المكاسرون . ثم يأتى بعدهم المستجيبون ، الموحدون ، على هذا الترتيب ، وإن كانت الرسالة « ٢٠ » تميز بين النقباء والمكاسرين حيث يجعل « المجتبى » أى النفس خليفة العقل « على سائر الدعاة ، والمأذونين ، والنقباء ، والمكاسرين » . ولعل ذلك التفريق تنظيم جديد أحدث فيما بعد فى جهاز الدعوة . مما سنأتى على ذكره بالتفصيل .

تصف الرسائل السماويين ، أو الروحانيين ، الخمسة المذكورين آنفاً ، بأنهم « خمسة روحانية » . ولهم فى مواضع كثيرة أسماء وألقاب مختلفة لا مجال لسردها جميعاً . فإن العقل مثلاً يسمى « ذا معة » ، والنفس « ذا مصة » . والكلمة « الجناح » ، عند ما لا يقصد بأنه أحد الجناحين : الأيمن والأيسر . فالجناح الأيمن – عند التخصيص – هو « السابق » ، والجناح الأيسر هو « التالى » . ولذلك ، من باب التمييز ، يطلق أحياناً على « الكلمة » أى ثالث الحدود ، لقب « الجناح الربانى » .

وكم يقع القارئ ، غير الملم بالبواطن ، فى حيرة من جراء نعوت ومتواردات ومترادفات وكنايات لا يعرف دقة مدلولها إلا الشيوخ « المتقدمون » « كالقدرة » ، والمشية ، والكلمة ، والعزة ، والإرادة . وقولهم إن السابق هو الكلمة ، مثلا ، « هى هو وهو هى » الخ » كما جاء فى الرسالة « ١٣ » : « وبعضهم قالوا بأن الكلمة فوق السابق . لكنها هى هو وهو هى . لا فرق بينهما . . . »

إلى هذا أشار « المقريزى » فى كتابه « الخطط » بقوله إن هذا الغموض فى الملابسات يوضح للمستجيب عند بلوغه الدرجات العليا فى علم الدين . إذ

يوضّح له فى الدرجة الثامنة [كذا] أن السابق سيد الوجود ، والتالى منبثق منه . وهما متلازمان كالعلّة والمعلول ، أو السبب والنتيجة . وأن التالى قد يصل فى تكامله إلى درجة السابق . كما يستطيع « الأساس » أن يبلغ مرتبة « الناطق » ، و « الداعى » مرتبة « الأساس » . ولعلّ هذا التداخل يقرّب إلى الأذهان أمثال نظرية الثالوث وما شابهها .

فلننظر فى شأن الدعاة ، والمأذونين ، والمكاسرين ، قبل الإقدام على شرح الفوارق فى المراتب بين الباطنية والتوحيد ، أو الإشارة إلى تداخلها مما يستلزم التوضيح جهْدَ الاستطاعة ، ما دمنا فى مجال التحقيق .

جهاز الدعوة

« النطقاء » هم الأنبياء واضعو الأديان المتعاقبة : نوح ، إبراهيم ، موسى ، عيسى ، محمد . لكل منهم أساس يتلوه ، وينشر ديانته ، ويفسرها ، ويؤولها . وللأسس أيمة يلونهم ؛ عددهم سبعة . ولكل إمام ١٢ حجة فى أقاليم الأرض ينشرون تعاليم إمامهم . ويتألف جهاز الدعوة ، أو التبشير قبل إغلاق بابه ، من دعاة ، ومأذونين ، ومكاسرين :

١ – أما الدعاة ، أى المبشرون بالدعوة ، لاستمالة الناس إليها ، فإنهم ، مع المأذونين والمكاسرين ، يأتون بعد « الحدود » ، فى التنفيذ ، لا فى التقديس . مستمدين سلطتهم من « التالى » . وهم ليسوا خالدين فى منزلة روحية كالحدود . لكنهم يتحلون بالفضيلة والمعرفة والتقوى .

بهذا يبدو واضحاً ماتعنيه الباطنية من تقسيم السلطة الروحية ، المتحدرة من « التالى » ، آخر الخمسة الروحانيين ، إلى الدعاة أو الرسل الموفدين إلى الأقاليم لنشر دين التوحيد كما يُستَدل من الاسم الذى يحملونه .

٢ – يليهم المأذونون ، « مَن أذِن لهم فى الكسْر والجبر » [الرسالة ٥٧] . يفسِّر ذلك القولُ بأن مهمة الداعى إنما هى فى استمالة الضالين بأن « يكسرهم ويجبرهم ويُخْرِجُهم مما هم فيه من الكفر والشِّرْك » ، تمهيداً لإدخالهم فى المذهب الباطنى .

٣ – ويأتى بعدهم المكاسرون ، وهم المرشدون الذين يدلّون على الأخطاء ، ويبيّنون الصواب . بهم يبدأ العمل فى سبيل الاستمالة إلى العقيدة الباطنية . « فيكسرون » أو يهدمون الخطأ ، ويُبطلون الضلال ، لِتَهْيِئَة الناس وإعدادهم للاستجابة ، كما تدل قصة « صرصر » الذى « كاسَرَه » أحد الدعاة فى الأحساء ، ثم قدّمه إلى « شطنيل » الحكيم الذى صيَّره « داعياً » [الرسالة ١٢] . وكما توضح المعنى الرسالة ٦٥ بقولها : « ثمّ أنفذ إلى كثير من المواضع بكاسرهم

عن المقتنى ، أنه الإمام » .

فى زمن السَّتْر كان يُرمَز إلى الداعى بكلمة « الجدّ » : « لأنه يجدّ فى طلب علم التوحيد من الإمام » ، ويُرمَز إلى المأذون بكلمة « الفتح » : « لأنه يفتح للمستجيبين باب الإيمان » ، ويرمز إلى المكاسر بكلمة « الخيال » : « لأنه يلوّح بعلمه ومكاسرته مثل الخيال ، إذ كان له التلويح ، بغير كشْف ولا تبيان » . . . [الرسالة ١٧] مما يدعو إلى الحذر من الالتباس بين أسماء الأعلام والنعوت فى مواطن كثيرة .

كان ذلك فى زمن الستر .

وكان للدعاة رئيس ، فى الباطنية ، يسمّى داعى الدعاة ، له نفس المنزلة التى كانت لقاضى القضاة، فى السنّة . يرشد المستجيبين للدعوة العلويّة ، دعوة الإيمان ، ويقوم بين يديه اثنا عشر « نقيباً » يُشْرفون على مجالس الحكمة التى يؤمها « المؤمنون » . وهى غير المجالس الباطنية التأويلية المذكورة فى الرسالة ١٥ ، فإن « الموحدين » يقولون : « إن الإسلام باب الإيمان ، والإيمان باب التوحيد » ، فى التطوّر من التنزيل إلى التأويل فالتوحيد . والداعى فى هذه المراحل « يجهد فى أمور المستجيبين حتى يبلّغهم الدرجات العالية » [الرسالة ١٧] .

فى هذا التدرّج يقول حمزة (الرسالة ١٣) : « إنّ المستجيب إذا دخل فى التوحيد على يد المأذون ، يقوم ذلك مقام من دخل على يد الداعى . ومن استجاب على يد الداعى يقوم مقام من استجاب على يد الحجّة . لأنهم كلّهم يدعون إلى شىء واحد هو التوحيد » .

وعلى الداعى ، فى القيام بمهمّة الدعوة ، شروط ووصايا أخلاقية وأدبيّة صارمة . منها أنه ، حين يدعو النساءَ ويرشدهنّ إلى الإيمان . عليه أن يخفض بصره ، ويصوّب نظره إلى كتابه ، وأن لا يتجه صَوْبَهُنّ حين يكلّمنَه . ومنها أنه لا يُجيب إلا عما يعرفه . وإلا فإنه يَسأل مَن هو أعلى رتبةً أو أكثر علماً منه .

بالداعى يقصد إجمالاً جميع هذه المراتب الخاضعة كلّها للشروط

المذكورة فى النصوص . على أن المأذون تابع للداعى ، يتقيّد بأوامره . وكذلك المكاسر التابع للمأذون . والمأذونون أكثر عدداً من الدعاة . فنى « تقليد الشيخ المختار » [الرسالة ٤٥] يقول بهاء الدين : « فلك بحقّ السيادة أن تنصب من المأذونين ، بعد الثلاثة الداعين ، ما وجدتَ إليه سبيلاً » .

قلنا قبلاً إن الجد والفتح والخيال عند الباطنيين هم ، زمنيًّا ، الإمام والحجة والداعى . ولكن كثيراً ما يقع الالتباس بين أسماء الأعلام والنعوت كما ذكرنا سابقًا . فإننا نجد فى بعض الرسائل أن النفس « حجة» الإمام (العقل) ؛ والكلمة « الداعى » ؛ والسابق باب الحجة . على أنّ لقب الإمام ، فى كتب الموحّدين ، مختصّ بالعقل .

وفى رسائل أخرى يضاف الجدّ والفتح والخيال إلى الحدود الخمسة الروحانيين . فيصبح الجميع ثمانية . ولكن الثلاثة المضافين يُعَدّون فى منزلة أدنى من الخمسة الأصليين . ولست أدرى إذا كان الضمّ على هذا الشكل من باب التسوية أو التقريب بين الباطنية وفرعها « التوحيدى » ، أى مذهب حمزة ، أم هو توسّع فى النعوت والألقاب ، أم خطأ فى النسخ ، أم إدخال متعمَّد .

فإن حمزة فى بعض رسائله يسمّى العقل «السابق» والنفس «التالى» ، أى تالى العقل . ويضيف إليهما الجد والفتح والخيال ، كما فى الرسالة ٤١ بحيث يصبح الجميع خمسة ، لا ثمانية . ولكنه فى الرسائل الأخرى [الرسالة ١١ مثلاً] يميز بين الحدود « العلويّة » الخمسة وبين الجد والفتح والخيال الذين يضعهم ، كما قلنا سابقًا ، فى مرتبة أدنى . ويلحقهم بهم . أو يجعلهم بمنزلة الدعاة .

هنا لا بدّ من إلقاء نظرة عابرة على الالتقاء والافتراق ، فى ذلك ، بين التوحيد والباطنية . أو أثر الأصل فى الفرع ، مما يعرفه الملمّ بما بين الإسماعيلية والدروز من التقاء فى العقائد . حتى إن الدروز يعتقدون أن الإسماعيليين إخوانُهم ؛ ولكنهم يَسِمونهم بالتقصير .

بين التوحيد والباطنية

تجنّباً للإطالة ، وحصراً للبحث ، أجتزىءُ بما أدخله حمزة من تعديل في مراتب الباطنية :

١ — إنه وضع فوق « السابق » و « التالى » — اللذين تعدّهما الباطنية أوّل وثانى الحدود — ثلاثة روحانيين . أسمى رتبةً ، هم : « العقل » ، و « النفس » ، و « الكلمة » . وقد سبق شرح مراتبهم وتفسير مغزاها .

٢ — حذف من حدود الباطنية الخمسة ثلاثة هم : « الجدّ » ، و « الفتح » ، و « الخيال » ، وألْحقَهم بحدود التوحيد الخمسة . وقد قلّ ذكرهم فى رسائله مع ما رافق ذلك من غموض حاولت جلاءَه وسْعِى .

٣ — جعل « الناطق » و « الأساس » من حدود ، أو أنبياء ، التنزيل ، أى علم الظاهر فى الدين . واستعار بعض نعوتهما لحدود « التوحيد » ، منبّهاً فى الرسالة ١٧ بقوله : « واعلموا ، هداكم المولى ، أنّ جميع الأسماء المتعارفة بين المؤمنين — مثل السابق ، والتالى ، والجدّ ، والفتح ، والخيال ، والناطق ، والأساس ، والإمام ، والحجة ، والداعى — تقع على محمود ومذموم ... وكلّهم موجودون فى كلّ عصر وزمان » .

٤ — جعل للحدود ظهورات بشرية ، حيّة ، فى الأدوار المتعاقبة . بينما اعتبرتهم الباطنية الأخرى حدوداً غيبيّة ، روحانية غير منظورة . فإنه يقول : « الروح لا تدرَك إلا بالجسم » [الرسالة ٩] . وبالرسالة ١٥ يجمع بين الظاهر والباطن بقوله :

« ليس كلّ من عرف باطن شىء وجَب عليه تركُ ظاهره ، ففى الأشياء ما لا يُترَك ظاهره ولو علم تأويله على سبعين وجهاً ، منها الطهارة ، وباطنها البراءة من الأبالسة وطهارة القلوب من محبّتهم ... ويجب على من عرف الباطن أن يزيد فى طُهْر الظاهر » . . .

٥ – فى المقارنة بين الباطن ، والظاهر ، والتوحيد ، يقول إنّ الحقيقة هى معرفة التوحيد . وتقول الرسالة ٣٦ إنّ الدين « الظاهر من قِبَلِه العذاب ... والباطن (أى التأويل) فيه الرحمة (أى فيه مذهب التوحيد) ... وهو (أى مذهب التوحيد) المراد بقول القرآن : « فضُرِب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة . وظاهرُه من قِبَله العذاب » [الآية ١٣ السورة ٥٧] « ولم يقل هو الرحمة . وفى الشىء ما أودِع فيه ، وليس هو الشىء بعينه . فدلّ بأن الباطن (أى التأويل) يدلّ على الرحمة (أى التوحيد) » .

وفسّرت الرسالة ٣٨ هذه الآية بقولها : « السور الشريعة . والباب الأساس كما قال الناطق : أنا مدينة العلم وعلىّ بابُها . الباطن (أى التأويل وهو باطن التنزيل) فيه الرحمة (أى « حكمة » التوحيد) دليل على أن الرحمة غير الباطن (أى أن « الحكمة » غير التأويل) ... والقائم (أى « العقل ») صاحب الرحمة » .

وتشرح الرسالة « إخراج الموحّدين من الظاهر والباطن إلى المسلك الثالث وهو مسلك التوحيد . . . فأهل الباطن مؤمنون . وأهل القائم موحّدون » .

وتوضح . ومثلها تفعل الرسالتان ٩ و ٢٢ ، منازل الحدود . فَقَائم الزمان هو العقل الكلىّ . وهو يُستثنى من الحدود الخمسة . لأنه يقوم فرق كبير بين العقل والأربعة الآخرين . فإنّ العقل يتلقى الحقيقة مباشرة من الله . وسائر الحدود يستمدّونها منه .

هؤلاء الخمسة هم العلويون . أمّا الثانويون فعددهم ١٥٩ . فيصبح الجميع ١٦٤ . هم أحرف « السدق » – بالسين بدلا من الصاد – فى مراتبَ يطول شرحها ، وفى حساب يُسمى حساب الجُمَّل ، يتخذونه دليلاً على التوحيد وعلى عدد السادة المذكورين [س = ٦٠ + د = ٤ + ق = ١٠٠ فيصبح المجموع ١٦٤ حداً] . وهذا الحساب بشقّيه « الصغير » و « الكبير » كثيرُ الورود فى النصوص الرمزية .

وفى « كتاب النقط والدوائر » أنّ الأصلين هما : العقل الكلىّ والنفس

الكلية . يليهما : الكلمة ، فالسابق ، فالتالى . هؤلاء الخمسة هم « أصولُ العالم الروحانى . مشتركة الإعلالية والتأثير فى النفوس الناطقة (أى الأرواح) . والنفوس الناطقة هى العالم الروحانى . . . .

« والنفس الناطقة عاقلة ، عالمة ، حيّة ، جوهرية شفّافة ، قابلة للصور . فهى تقبل الجهل ، كما تقبل العقل . . . دائمة الانتقال من جسم إلى جسم » . . .

وهذا جميعًا سيأتى تفصيله فى الفصول الآتية .

العقل

جاءَ في « الحكمة » أنّ الله خلق ، من نوره الشعشعاني ، « الإرادة » ، صورةً كاملة صافية . هي هيولى كلّ شيء . وبها تكوينهم . فإنه إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون . « وسمّى تلك الصورة "عقلا" . فكان العقل كاملا بالنور والقوّة . تامًّا بالفعل والصورة . . . وأحصى فيه جميعَ ما هو كائن . . . إنه موجود في كل عصر وزمان . وهو "السابق" الحقيقي » [الرسالة ١٣] .

جعله الله علّة العلل . وأصْل « نقطة البيكار » ، المحور الذى تدور عليه جميع العقائد والأفكار . . . به فخر العالمين ، في أمور الدنيا والدين . « وجعل منازلهم على قدْر ما يقتبسون من نوره ، ويستقون من بحره العذْب الزُّلال » .

لقد سُمِّيَ السابق « لأنه سابق في الإبداع . سابق في معرفة الله . سابق في التوحيد ، والدرجة ، والعلم » . . . والمعرفة أساس كل شيء . بها يحتوى العارف كل ما هو حوله وما فيه .

وسمّى العقل « لأنه يعقل ما يأتيه من وحى الله . ولأنه عقل الكون كلّه ، ودبّره . وأحصى أعمال الخلائق كلّها . ولأنه يعقل نفسَه عن كلّ ما لا يريده الله » .

قال الله : لا يدخل جنّتى أحد إلاّ بالعقل و بمحبّته . والجنة هنا دين التوحيد والمعرفة الصحيحة .

وقال العقل عن نفسه : « الحمد لمن أبدعنى من نوره . وأيّدنى بروح قدسه وخصّنى بعلمه . وفوّض إلىّ أمره . وأطْلعَنى على مكنون سرّه » .

فلما أعجبت العقلَ نفْسُه ، أبدعَ له الله : من طاعته معصيةً . ومن نوره ظلمةً . ومن تواضعه استكباراً . ومن حلمه جهلاً .

هذه الطبائع الأربع المذمومة هي طبائع « الضد » . منبعثةً من الغرور . امتحنه الله بها ليظهر له عجزَه .

فلما أحسّ بعجزه طلب من البارى المغفرة . وسأله أن يمنحه مُعيناً على

الضد ، ينوب عنه لدى الموحّدين فى الدفاع عنهم ، « ليستغنى به عن مخاطبة الضد » . فأبدع الله تاليَهُ فى الرتبة ، « النفس » . وجعله « ذا مصّته » ، أى أنه يمتصّ منه العلوم الروحانية والحقيقة الربانية . ويتلقّى أوامره . ويتمتع « بنصف الحركة والفعل » . رامزاً بذلك إلى القاعدة القرآنية : « للذّكر مثل حظّ الانثيَيْن » . باعتبار العقل بمنزلة الذكر ، والنفس بمنزلة الأنثى . وسائر الحدود أولادهما . مجازاً . وهم الكلمة . فالسابق (المسمّى أوّلهم فى الباطنية الإسماعيلية) . فالتالى (الذى كانت تعدّه الباطنية ثانيَهم) . ولتمييز العقل عن السابق الباطنى ، سُمّىَ « السابق الحقيقى » .

تصف الرسالة ٣٩ كيف خُلق من محض نور الله ، وكيف أوجِدت فيه الأشياءُ كلها دفعةً واحدة . وعُقلت به جميع المخلوقات . وجُعِل أصلَ المبدَعات ، مؤيَّداً بالقوة الإلهية والمادة العُلوية ، آمنًا من النقصان .

كان أوّل ظهوره البشرىّ فى زمن البار . وهو يقول : [الرسالة ١٤] « المولى سبحانه اصطفانى . وأبدعنى من نوره . قبل أن يكون مكان . ولا إمكان ولا إنس ولا جان ... » وتُحسَب المدّة « من وقت إبداعه إلى حين ظهور آدم الصفا ٧٠ دوراً . بين كل دور ودور ٧٠ أسبوعًا . بين كل أسبوع وأسبوع ٧٠ عامًا . والعام ألف سنة مما تعدّون » ... أى أنها ٣٤٣ مليون سنة .

مثل هذا الحساب ورد فى رواية عن العبّاس بن عبد المطلب أنّ الرسول قال : « بين السماء والأرض مسيرة ٥٠٠ سنة . ومن سماء إلى سماء ٥٠٠ سنة . وكثْف كل سماء ٥٠٠ سنة . وبين السماء السابعة والعرش (يفسّر يوسف على ، مترجم القرآن إلى الإنكليزية ، العرش بأنه المركز والقرّة والمعرفة ورمز السلطة) . بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض (أى ٥٠٠ سنة) . والله سبحانه وتعالى فوق ذلك . ولا يخفى عليه شىء من أعمال بنى آدم » . على أنّ بعض علماء السنة ، ومنهم الشيخ عبد الرحمن حسن حفيد محمد بن عبد الوهاب ، يشيرون إلى ضعف هذا الحديث . أما الدروز فيفسرونه باطنيًا .

كان بارْمَنِيدِس ، أبو الغيبيّات ، يقول : « ما يمكن التفكير به ، وما يمكن أن يكون ، هما شيء واحد » . بهذا المنطق في معالجة المسائل الغيبية ، وخلافاً لزعم الواقعيين « أنّ الواقع مستقلّ عن الفكر » ، توخّى المثاليون إدراك كُنْهِ الوجود . زاعمين أنّ العقل محور الواقع ، ولُبابُ الحقيقة ، وينبوع الخير والجمال .

وبعد أربعة قرون جاءت العقيدة الدرزية تؤلف بين الصوفية وهذه المثالية . فجعلت العقل « الكلي » ، المنبثق من الله ، أصلَ الوجود . ذاهبةً بذلك إلى أنّ الله المُعلّ خلق أوّلا العقل ، علةَ الأشياءِ كلها . وأبدع من نوره الكائنات . يشترك بهذه العقيدة إخوان الصفاء والمعتزلة والإسماعيلية ، الذين يقولون بإن العقل البشري ، باتصاله بالعقل الكلي ، يحصل على الحكمة وإن الصلة بينهما كالصلة بين الطاقة والمادة . لا ينفصلان . بواسطتها يقترب الإنسان من الله . وبنسبة هذا الاقتراب يواجه الحقيقة ، ينبوع السعادة .

ويروون عن رسول الله قوله : « أوّل ما خلق الله العقل قال له أقبِل ، فأقبل . ثم قال له أدبر فأدبر . فقال : وعزّتي وجلالي ما خلقْتُ خلقاً أكرَمَ عليّ منك . بك آخذ ، وبك أعطِي . بك أثيب ، وبك أعاقِب » .

ويقولون إن العقل الإنساني هبَة الله التي بها يتجاوب مع العقل « الكلّي » ، ويقتبس منه ، ليدرك إرادته تعالى . ويميّز بهديه بين الخير والشر ، والحقّ والباطل ، قبل سنّ القوانين وإنزال الشرائع . بل إنه لا يزال الحكَم فيما غمض منها ، أو في تعارضه مع هذا التجاوب العقلي .

لم ينفرد هؤلاء بهذا الرأي . بل شاركهم فيه كثيرون من أعلام المسلمين كالفارابي وابن رشد . وغيرهما ممن تأثّر بالروح الفلسفية في ذلك العصر . فقد واجه الإسلام في إبّانه تيارات فكريّةً . نهض لها . واشتدّ بها ، وأقبلَ عليها ، عملاً بقول الرسول : « اطلبوا العلم ولو في الصين » .

وكان من نتيجة هذه النهضة أن تصدّى الفكر للعقائد . واخترق نطاق حرَمِها . مما أثار حفيظة المتزمتين المتشدّدين . والتاريخ حافل بثورات نقمتهم

على الفلاسفة المتحرّرين من قيود النقل . والتزمّت في الدين أدلّ على الضّعف منه على القوّة .

ولا يزال حكماء الإسلام يقولون بتحكيم العقل . فالإمام الشيخ محمد عبده يقول : « إذا تعارض العقل والنقل ، أخذ بما دلّ عليه العقل . . . . » أى أنّ العقل يقدّم على ظاهر الشرع عند التعارض ، ويؤخذ بالدليل العقلىّ القطعىّ . واشترط شيخ الإسلام ابن تيمية التماس الصحة فى المنقول ، بقوله : « إن صحيح المنقول فى الإسلام موافق دائمًا لصريح المعقول » .

ليس أدلّ من هذا على أنّ الصحيح فى كلّ مذهب ، يشترك فيه طلاب الحقيقة ، وإنْ هم انتموا إلى سواه من المذاهب . وأنّ العقل الإنسانى المستمدّ من العقل الكلّى هو الوسيلة الوحيدة لاختراق كلّ حاجز إليه .

مذاهب العقل

١ – ذلك العصر :

حفل القرن العاشر للميلاد بتفسُّخ الإمبراطورية الإسلامية. وانقسامها إلى دول ودويلات متعدّدة . ففي الأندلس الأمويون الذين دامت دولتهم ٧٨٠ سنة . وفي شمالي أفريقيا الفاطميون بعد الأغالبة والأدارسة . وفي حلب الحمدانيون . وفي مصر الأخشيديون . وفي العراق الديلم . وفي عُمان والبحرين واليمامة وديار البصرة ، القرامطة . وفي بلاد فارس والأهواز ، البويهيون . وفي خراسان بنو سامان. وفي الهند وأفغانستان ، آل سبكتكين . وفي طبرستان ، العلويون .

هكذا تفرّق العرب في ذلك العصر كتفرُّقهم اليوم . حين طلع عليهم ، كاليوم ، فجر النهضة من مصر ... وكانت خصوماتهم السياسية ، ومنازعاتهم الإقليمية ، في أواخر ذلك العهد ، تماماً كما هي الآن ، في بداية يقظتهم القومية ... حتى بلغوا من التراخي الخلقيّ والتفكك القومي أنْ طلب أبو الفضائل الحمداني الحماية من الإمبراطور البيزنطي ، والاستعانة به على دولة شقيقة ... ألاَ كَمْ يعيد التاريخ سيرته الأولى ، أو نفسَه كما يقولون ! ...

من غمرة هذا الانحطاط السياسي برزت فِرَق سرّية أحدثت فورةً جدَليّة ، وخضّةً روحيةً ، بإقحام المنطق والعلم والفلسفة في شأن الدين . فكان النشاط الفكري والازدهار العلمي ، في ذلك العهد ، كما كان قِدْماً ، في تاريخ المدنية اليونانية ، نقيضَ ذلك الانحطاط . إذ أنه زخر بالفلاسفة وجاش بالعلماء والكتّاب والشعراء . كالشريف الرضي . والمتنبي . والمعرّي . وابن العميد . وابن سينا . والفارابي . والبيروني . وغيرهم من الذين ، كفلاسفة اليونان ، لا يزالون منارات للعقول ، ومصابيح للأفهام ، إلى يومنا هذا .

وكانت قد قامت قَبل هؤلاء جميعاً ، وقبل الفرق السرّية ، مدارس فكرية عديدة ؛ منذ فجر الإسلام ، بتأثير المذاهب المسيحية التي انتشر

الإسلام فى بلدانها بين شعوبها كالنساطرة فى العراق . واليعاقبة فى مصر والحبشة . والسريان فى سوريا .

فاقتبست منها ومن الفلسفة اليونانية ما زوّد الفكر العربىّ بأروع ذخائر الإنتاج . وأغنى خزائنه بأنفس الكنوز والأعلاق .

من هذه المدارس الفكرية سنأتى . فيما يلى . على ذكر أقربها من مذهب « التوحيد » . وألصقها به . وأعمقها أثراً فيه .

٢ — إخوان الصفاء :

فى ذلك الازدهار العلمى والخصب الفكرى . ظهرت جماعة إخوان الصفاء . فإن معزّ الدولة البويهى لما استولى على بغداد ، فى ذلك الحين . أظهر أمرهم وعطف عليهم . وكان شيعياً . وكانوا . لأنهم من الشيعة الباطنية ، يخشون سطوة السنّة فى نزاعها مع الشيعة . ففى عهده عُرفت رسائلهم الاثنتان والخمسون التى كانوا يتداولونها سرًّا .

ويرجّح أنّ أبا العلاء المعرّى كان منهم . وكان يجتمع معهم سرًّا يوم الجمعة الذى كان العرب يسمونه « عَرُوبة »[1] . يقول من قصيدة له :

تهيّج أشواقى عَرُوبةُ أنّها إليك زوتنى عن حضورٍ بمجمعِ

كما يذكر إخوان الصفاء ومودّتهم وصلته بهم بقوله :

وإذا أضاعتنى الخطوب فلن أرى لوداد إخوان الصفاء مضيعا

وفى شعر أبى العلاء وفلسفته كثير مما يدلّ على أنه . إن لم يكن منهم ، فهو على الأقلّ متأثر بفلسفتهم . ومُرَدّدٌ للكثير من أفكارهم .

---

(١) وكانت أسماء أيام الأسبوع عند العرب العرباء : أول . أهون . جبار . دبار . مؤنس . عروبة . شيار .
جمعها الشاعر بهذين البيتين :

أؤمل أن أعيش وإن يومى لأول أو لأهون أو جبار
أو التالى دبار أو فيومى لمؤنس أو عروبة أو شيار

يقول آغا خان ، زعيم الإسماعيلية ، فى كتابه « نورٌ مبين » ، إن إخوان الصفاء لاذوا بالكتمان وحرصوا على إخفاء رسائلهم ، صوناً لسلامتهم ، وإنْ هم زعموا أنهم فعلوا ذلك « صيانة لمواهب الله عزّ وجلّ » . والدروز يقولون إن « إخوان الصفاء » إخوانهم . وقد تكون كتب الحكمة الستة إتماماً لرسائلهم . ولا شك أنّ هنالك رسائل أخرى من مجموعة رسائلهم ليست فى حوزتهم .

من هذه الرسائل ، يقول تاريخ سوريا ، للمطران الدبس ، « كتاب المشاهد والأسرار التوحيدية » . وهو أربعة مجلدات ، نُقِل ثلاثة منها من سورية إلى إفرنسة سنة ١٧٠٠م . والرابع كان فى مكتبة الرهبان الدومنكيين . ثم انتقل إلى مكتبة الأمة فى باريس . ويقول البروفسور مكدونلد ، فى كتابه « اللاهوت الإسلامى » : « حينما استولى المغول على قلعة "ألمـوت" وجدوها غنيّة برسائل إخوان الصفاء » . مما يدل على الصلة بين تعاليم إخوان الصفاء والإسماعيلية والدروز .

إنّ أوْجُه الشبه بينها عديدة كما سنرى فيما بعد . منها تنظيم جماعتهم . وإيفاد دعاتهم . والوصايا التى يزوّد بها الدعاة من حيث قبول المستجيبين ، والعطف عليهم ، والرفق بهم ، والرجوع إلى من هم أعلى رتبة منهم فى الأمور الصعبة ، والتدرّج فى الاطلاع على الأسرار . وكتمانها . وألفاظهم الرمزية . وتقديس الأديان كلها ، وتفسير آياتها باطنياً . وعقيدة التقمّص . وفلسفة القدر والتخيير . والحدود . وخلق الوجود . والعقاب والثواب . مما سيتضح فى فصول آتية .

وأمّا أوْجُه الاختلاف ، كتسفيه الدروز للتنجيم والطوالع والتشاؤم والتفاؤل ، وإنكارهم لوجود الشياطين والملائكة ، فإنها نتيجة لتطوّر المذهب وتصفيته مع التقدّم الفكرى ونموّ المعرفة .

٣ – المعتزلة :

كان « المعتزلة » جماعات من الفلاسفة يحملون ، « كالدروز » ، اسماً لم يختاروه لأنفسهم . بل أطلق عليهم . لأنّ واصل بن عطاء ، المؤسس الأوّل ، كما يُروى ، « اعتزل » مجلس رئيسه الحسن البصرى ، لاختلاف فى الرأى . وكانوا كالدروز يطلقون على أنفسهم اسم الموحدين أو « أهل العدل والتوحيد » . ومثلهم يقولون بأنّ للإنسان قَدَراً ، أى قدرة على أفعاله . لأنّ الله عادل فى محاسبة المرء عما له الخيرة فى عمله لا على ما هو مجبر به ، مكره عليه ، مما سيأتى بيانه فى فصل خاص . ويدافعون عن وحدانية الله فى نفى الصفات القديمة والحالات المنسوبة إليه تعالى . بالأدلة العقلية . واللجوء إلى التأويل والمجاز فى تفسير ظاهر الأقوال والآيات الدينية .

فكانت تسميتهم بالقدرية خطأ . وهو اسم فرقة سابقة ، أولى أن يطلق على القائلين بأنّ القدر كلّه من الله . لا على المعتزلة ، الذين كالدروز يبرأون من القدرية ، وحجتهم فى ذلك أنّ عدل الله لا يسمح بأن يقدّر على العباد أعمالا لا يَدَ لهم فيها ، ثم يحاسبهم عليها ، إذا كان هو خالقها وفارضها جَبْراً .

وقد تشعبت نظرياتهم فيما هو قدَر الله على العباد ، وقدَر العباد على أفعالهم بالإرادة الممنوحة لهم . أو ما يسميه الدروز « التخيير » . والله المعين على الصواب . أى أنّ للإنسان جانباً مسؤولا من « الإرادة » العليا التى هى من أسماء « العقل الكلّى » الذى يتصل به العقل الإنسانى – وهو جزء منه – فى تطوّر الوجود . فبمقدار إرادته وحرية اختياره فى أفعاله ، يُثاب أو يجازى .

وقد نسبت إليهم ، خطأ ، أمورٌ هم منها براء . كما نُسب إلى مذهب التوحيد القول بالمقدّر أو الجبر الذى لا يزال يؤمن به من عامة الدروز من لم يفهم فلسفة المذهب على حقيقتها . وهو انحدار بالدين لم يسلم منه شعب من الشعوب . وكُفْرٌ بالرسالات الإلهية التى جاء بها الرسل يدعون إلى الخير وينهون

عن الشر . ويعدون بالثواب ويوعدون بالعقاب . والرسالات نفسها جاءت من العقل الكلي إلى العقل الجزئي ، بلغته ومنطقه . يقدّم فيها العقل على النقل . أي الفكر على مؤدّاه ، في محاولة التوحيد بينهما .

والدروز كإخوان الصفاء يوافقون المعتزلة في أكثر الأصول ، فإنّهم مثلهم يحاولون التوفيق بين الدين الإسلامي والفلسفة اليونانية . ويعظّمون أولئك الفلاسفة ، ويرفعون بعضهم إلى أعلى مراتب القداسة . وينفون الجهة أو المكان عن الله . وينكرون الشفاعات والمعجزات . ويضعون في باب المجاز ما « ينقل » عن ذلك جميعاً في نصوص الأديان . ويميلون إلى التقشّف والزهد . ويرفضون عطايا الأمراء وهبات الحكام ، يعدّونها من المال الحرام . ويمتنعون عن الوقوف ببابهم .

ابتسم الدهر لهم في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي كما ابتسم للمعتزلة في عهد المأمون . ثمّ نكبوا مثلهم . فكانت نكبة المعتزلة عبرة ونذيراً لإخوان الصفاء ولمن جاءَ بعدهم من جماعات التفكير الحرّ . فلاذوا بالكتمان والاستتار ، اتّقاءَ الاضطهاد والعُدوان . واستشرت الرجعية . وانحصرت أنوار الفكر في زوايا المجالس ، أجيالاً متعاقبة حُرِم الناس فيها تَفَهّمَ كنْهِ إيمانهم ، ونعمةَ المتعة في سبر أغواره ، والخوض في غمار أسراره . واختفت منابر المناقشة والمجادلة . فقلّ المشتغلون بها ، العاكفون عليها ، حتى تحجّرت العقائد ، وفقدت روعةَ فتنتها ، وحيويّةَ روحانيّتها .

٤ ــ الصوفية :

ظهر النزوع إلى التنسّك والتقشّف في القرن الثاني للهجرة ، التماساً للتقرّب من الله بالصلوات والتأملات . وتحوّل إلى التصوّف بالتعبّد . وتصفية النفس من الميول الطبيعية . وإخماد الشهوات . والاتصال بالحقيقة . والإعراض عن الأعْرَاض . بالرضى والتسليم . والانقياد إلى الحق . والزهد في متاع الدنيا . والتَبَحُّرِ في أسرار الوجود . والتجريد . والتأمل . فشاركهم في أكثر ذلك ، فيما بعد ، جماعة الموحّدين الذين لا يزال أشياخُهم حتى اليوم يتزمّلون بالعباءات

الصوفية . ويمارسون مناسك المتصوفة . وتعبداتها إلى حد بعيد . ما عدا « ترك الاختيار » . لأنهم بحسب مذهبهم مخيرون فيما يحاسبون عليه . لا مجبرون .

وكان الحاكم بأمر الله زاهداً متقشفاً . يكره اللهو ، بل يحرمه كما حرم الخمرة ، ونهى عن الزينة والزهو . ولبس الصوف سبع سنوات . كالمتصوفة تماماً . واتبعه وحذا حذوه فى التحريم والزهد والتعفف ولبس الصوف أشياخ المؤمنين به إلى يومنا هذا . ما عدا التبحر والتأمل والتجريد .

على أن الصوفية ، بعدما اجتازت مرحلة التطور فى اختباراتها الروحية ، وممارسة التعبدات على طريقتها الخاصة ، أصابها الجمود ، وعراها التقليد ، ككل طريقة دينية ملائمة لروح العصر الذى أوجدتها حاجته ، ثم نضبت موارد وحيه لها ، أو وهن إقبالها عليه . ولا سيما أن ذلك الإقبال الروحى لم يتخذ سبيل العقل والعلم إلا عند القلة من أعلام الصوفية . فإن الصوفية فى روحانيتها التعبدية لم تنفتح للتنقيب العلمى والتقصى الفكرى ، والبحث ، والنقد ، والمناقشة . بهذا الانفتاح افترق عنها مذهب الموحدين ، فى إبانه ، قبل انغلاقه والتشدد فى كتمانه .

ولكنها ، بتأثير النصرانية والبوذية والنزعة الفلسفية اليونانية . كانت قد أحاطت نفسها بجهاز يشرف عليه رؤساء وأشياخ ، فانتشرت فى القرن الرابع للهجرة ، خصوصاً بين الفرق الباطنية ، ومنها الدروز الموحدون الذين اقتبسوا منها أموراً كثيرة ، إلا التعبدات التى يشوبها الغلو . وزادوا بأن أمعنوا فى الكشف عن المعانى الباطنية . وسلطوا العقل على خفايا النقل . وهم يعظمون أعلام الصوفية ، كالحلاج والجنيد ، لصلاحهم وإخلاصهم وفضائلهم .

عن مثل هذه الفضائل التى يتحلى بها الدروز يقول « بورون » : « إنهم يحرمون الكذب ، والخمرة ، والتدخين ، وشهادة الزور ، والاغتياب والنميمة . ويؤمرون بالوداعة واجتناب الجشع والحسد . . . » ويقول بطرس البستانى : إنهم يمارسون ضبط النفس والعفة . وصدق اللسان . ويتجنبون السفه والبذاءة . ويرفضون المال الحرام » . وبمثل ذلك شهد لهم نوفل نوفل ، وفولنى ، واللورد

دفرين ، وتشرتشل ؛ كما شهد لهم من معاصريهم مارون عبود . وحنا أبى راشد . وبولس سلامة . ويوسف يزبك . وسعيد فرنسيس ، وتغنّى بفروسيتهم الشاعر القروىّ رشيد سليم الخورى . وأمير الشعراء أحمد شوقى . وكثيرون غيرهم ممن يضيق المجال عن ذكرهم .

أمّا مما يفترى عليهم به فأكتفى بنبذة عن الخمرة التى اشتهروا بتحريمها وبالامتناع عنها حتّى الأنفة من مجالسة شاربيها :

أشاع العبّاسيون ، عن الفاطميين ، لعداوتهم لهم ، أنّهم أباحوا شرب الخمور . حتّى إن القرمانى ، نقلا عن ابن الجزرى بكتابه « تاريخ الدول » (صفحة ١٩٢) يروى — زوراً — أن الحاكم أرسل أحد دعاته إلى سوريا يبيح لهم شرب الخمرة إلى يومنا هذا » . . . فى حين أن المقريزى والمؤرخين المعاصرين للحاكم ، يقولون فى معرض الشكوى منه ، لا فى الدفاع عنه ، إنه منع حتّى بيع الزبيب ، خشية أن يُصنع منه النبيذ . ولم يسمح للشارى بأكثر من أربعة أرطال من العنب ، فى وقت واحد ، للسبب نفسه .

٥ — الموحدون :

فى ذلك العصر ، كما وصفناه ، طلعت رسائل الموحدين بتعاليمها الباطنية ، متأثرة بالمدارس الفكرية التى سبقتها ، مستعينةً بالسلطة التى آزرتها واستفادت من دعايتها . وهى فى الواقع والأصل ثَوْرَةٌ وجدانيةٌ على سطحية التعبُّد الدينى ومناسكه و « طقوسه » . ورغبة عقلية ملحّة بالتوغل فى عالم الروح . بثّت فى العبادة حرارة الوجد والتهافُت . ولكن أعوزتها قوّة التجمع ، وفاتها استهواء الجماهير .

فى تفاسيرها الباطنية لنصوص الدين ما لا قِبَل للمؤمن العادىّ باستيعابه . « فإن لله سبعين ألف حجاب من نور » كما جاءَ فى الحديث الذى رواه الإمام الغزالى فى « مشكاة الأنوار » . وإنه تعالى « وسع كرسيه السموات والأرض » [الآية ٢٥٥ السورة ٢] أو كما يقول « وَدْزْوُورْث » : مسكنه أنوار الشموس

الغاربة ، والمحيط الرحيب ، والهواء الفسيح ، والسماء الزرقاء ، وعقل الإنسان » . أي أنه إذا كان لا بدّ من إيمان ، فإيمانٌ مع العقل .

مثل هذه الباطنية غزت المسيحية منذ أواخر قرنها الخامس حتى شيعة « الراجفين » (كويكرز) الحاضرة ، التي تشبه الدروز من ناحية الممارسة الدينية بالنسبة إلى « الكنيسة » ونظامها . فإنّ التصوّف الباطني ، في نُشْدانه الحقيقة وتوخّيه مواجهتَها ، أو الوقوفَ ببابها ، بعَثَ في المتصوّف الباطني شعوراً بالمعرفة ، واختباراً روحيًّا عميقًا ، جعله يتمرّد على السلطات الدينية وتقاليدها ويعيد النظر في تلاقينها . ولا يستسلم إلى تمسكها بجمودها . حتى اتُّهِمَ أصحابه بالكفر والزندقة . وكان السبب فيما يرويه التاريخ من اضطرابات وفورات . فالسكون ليس هدف الدين وغايته القصوى . والبشرية في مراحلها الروحية لا بد لها من مواجهة العقبات والمشقات .

قام في « الدروز » الموحدين نظام مذهبيّ ، مؤلف من الدعاة والمأذونين والمكاسرين ، يشمل مناطق مقسّمة تقسيماً دقيقًا . ولكن سرعان ما فقد هذا النظام قوّته الاجتماعية ، في مواجهة الضغط السياسي ، والتنكّر السُّنّيّ لكلّ شذوذ ، حتى انزوى وقبع في المجالس السرّية ، متّهما مدحوراً ، بعد إغلاق بابه وتصرُّمِ أسبابه .

وكان قد سهّل قيامَ المذهب فقدانُ سلطة دينية منظّمة في الإسلام ، مثل « الكنيسة » في النصرانية . فانطلق الفكر ، لا يردّه عقال ، يرود المرامي والمغازي في غوامض النصوص . ويستخرج المعاني من مكامن الألفاظ والرموز . وكلّ ما أحدثه من اضطراب وبلبلة ، يبرّره ما قام في الأذهان من تساؤلٍ ، قَرَعَ باب المجهول ، وألْحفَ في طلب الجواب . وحرّك شهوة الاستطلاع في عقول الناس . فأخصب باللقاح حرْثَ المعرفة .

لا يسع أنصار الحق إلاّ أن يحترموا كلّ ساع في طلب المعرفة ، ولو كان جاحداً . فإنّ المعرفة ، لا الإيمان الغاشم ، هدف الرسالات السماوية . ومذهب الموحدين ، بهذا السعي ، خاض في كشف المعمّيات الدينيّة . والغاية من

الحياة الإنسانية . ومصيرها . وتعريف الروح . وتقمّصها ، ونَفْيِ أسطورة الموت . وصورة النعيم والجحيم .

يقول بهاء الدين ، فى إحدى رسالاته : إن الأرواح المطهَّرة ، بإيمانها بواحدنية الله ، وتحلّيها بالفضائل البرهانية ، تنشد الكمال الذى فيه سعادتها ؛ وهذا هو الدين الصحيح ، والغرض من وجود الإنسان . فإن الحقيقة ، فى النهاية روحيّة ؛ والمادة لانهاية لها فى ذاتها . بهذا يعنى أن المادة ليس لها وحدة نوعيّة . وليس فى جوهرها رجس ولا نجاسة . بل إنها قدسية الأصل فى الوجود .

لذلك كان أبرز ما فى هذا المذهب عقيدة التقمّص ، أو تعاقب الأرواح فى هياكلها المادية . ومرورها فيها للامتحان والتطهير ، فى أدوار متواصلة من التطوّر ، حتى النهاية ، أو الحالة التى تُدعى فيها لتؤدّى حساباً عن أعمالها وسيرتها فى عالمها المادى الذى هو من صنعها . . .

وأبرز ما فى أتباعه أنهم ، إلى جانب تحكيم العقل فى العقائد ، يمارسون مناجاةً وابتهالات يتقرّبون بها إلى الله . فيجمعون بين النظريات الفكرية ومجرى الحياة . مما يُعْتَبَرُ السببَ والسرَّ فى واقعهم الخلقى الفذّ ، وتاريخهم الحافل بمفاخر هذه الجماعة البشرية الصغيرة .

وفوق ذلك . تنطوى عقيدتهم على عنصر إنسانىّ فريد بين العقائد . هو إيمانهم بأنّ الإنسان . فى نقائه . يُولَد فى بيت الصديق أو العدوّ . الغريب أو القريب . على السواء . وأنّ الجنس البشرى مختلط بالتقمص . يتكرّر اختلاطه وامتزاج عناصره . وشعوبه . وطوائفه . فى كلّ جيل ، دون تفريق أو تمييز . أو كما تقول إحدى رسائلهم : « والضد قد يظهر من بيت الولىّ » .

ما أقربَ هذه النظرية . فى شمولها ، إلى نظرية « وحدة الوجود » ؛ وهى : إن الحياة . والفكر . والقوّة . والمادّة . جميعاً انبعثت من أصل واحد شامل ، لا تدركه العقول . ولا يحيط به الوصف . وأنّ كلّ خير ، أو شر . وفضل أو نقص . وصواب أو خطأ . كل ذلك لا يُرَدّ إلى صاحبه وحده . ولا يعود عليه بمفرده . بل يُنَوَّل ، أو ينال من الجنس البشرى برمّته .

هكذا يحبك هذا المذهب ، فى نَسْج واحد ، مصير البشرية جمعاء ، مع استثناء التمييز الفردى ، فى خلاصٍ يختلفُ فيه عن أهل الكلام الذين يربطون الروح بالجسم الواحدِ ، بدايةً ونهايةً ، وانتظاراً فردياً ليوم الدينونة .

ويختلف عنهم بإصراره على أن الكمال المنشود تحاوله الروح ، على هذه الأرض ، بسلسلة من التطوّر الذاتىّ ، من حياة إلى أخرى ، حتى وصولها إلى ذلك « اليوم » . . . ويتساءل ، مستنكراً : أيُعقَل الزعمُ أنّ هذا التطوّر ، بما يُلْجم من القوى والمبادئ ، ويستلزم من الجهود والتعاليم ، يمكن إنجازه فى مدى حياة واحدة ؟ ! حتى إذا قيل ، جدَلاً ، إن ذلك ممكن ، بعد الموت ، فى عالم روحىّ ، يتساءَل إذا كان العدل الإلهى يستقبل ، بالتساوى ، روحاً تَهيَّأ لها الرشد والهدى ، وأخرى لم تُسْهَل إلى مثلهما من الوقت

إن ظهور الإنسان المتكرّر ، بأشخاصه المختلفة وأدواره المتواصلة ، فى هذا الوجود ، يسفر عن تجمع اختباراته الروحية ، كما تقول كتب المذهب . ويُقصَد منه تحقيق الغرض الذى من أجله وُجد النوعُ الإنسانى ، بما يشبه ناموس الوراثة الذى يشترك النوع فيه . لا أن يكون الإنسان بمفرده قطعةً جاهزة الصُنْع فى النهاية . بل جزءاً من جهاز التمازُجِ والتواصُلِ وتشاجبِ الأرحام والوشائج . وهو ، لعمرى ، أدْعى إلى الإخاء الإنسانى من كل دين .

التقمّص

تعود عقيدة التقمّص أو التناسخ إلى قدماء المصريين . وتعاليم فيثاغوروس. وبوذا ، وغيرهم ممن طوى همّه على كشف الغطاء عن أسرار الروح ومصيرها الخفيّ . فإنّ أفلاطون حاول تعليل نموّ المعرفة فى الأجيال البشرية ، وطاقة استيعابها للحقائق . فافترض مرورَ الأرواح فى حياة سابقة . ولعلّه بنى افتراضه على تدرّج الروح فى معارج الأجيال . وتطوّر المواهب والوعْيِ . ونموّ الطاقة العقليّة . لا على تجميع واختزان المعلومات . والفرقُ بين الأمرين أشْبه بالفرق بين تدريب العدّائين على الركض . وبين اجتياز المسافة التى يطوونها . حجته ، على كل حال ، قائمة على العمل المشترك بين العقل والروح ، وانتقال أثره من جيل إلى جيل .

« نيتْشِهْ » عالج هذا السرّ المحيّرِ بنظرية «التكرار الخالد» المنبعثة من اعتقاده « أن كلّ ما يحدث الآن ، حدث مراراً لا عَدّ لها من قبل . وسيتكرّر حدوثه مراراً لا عَدّ لها فى المستقبل ، دون تغيير أو تبديل » . فزاد الدروز على ذلك ، فى عقيدة التقمص ، أنّ التغيير الروحى مستمرّ ، متّجه نحو مثَل أعلى ، حتى انتهاء الأجيال — إذا انتهت . . .

لست أعمد إلى الإحاطة بالموضوع ، وتبْيان الفوارق بين « النّسْخ » و « المَسْخ » و « الفسْخ » و « الرسْخ » . عند غير الدروز . ولكنى سأوضح عقيدة التقمّص ، كما أفهمها :

جاءَ فى الرسالة ٦٧ أنّ البشر ، وهم عالم السواد الأعظم — سواء فى « العالم العلوى . أعنى الفلك وما فيه من المدبّرات والنيّرات والاستقصّات » ، أم فى العالم السفلىّ ، « لم يتناقصوا ولم يتزايدوا ، من حيث الأرواح التى هى معدودة من أوّل الأدوار . تظهر بظهورات مختلفات الصور على مقدار اكتسابها من خير وشرّ » .

فالأرواح أو النفوس خُلِقت بعد « العقل الكلّى » . من نوره الروحانى . محدودة معدودة عند الله . لا تزيد ولا تنقص على مدى الأجيال . والأجساد لا تقوم من القبور بعد موتها وتعود كما كانت قبل موتها ، كما تبشر بعض العقائد الأخرى . فإنّ الأرواح تنتقل إلى أجساد جديدة بالولادة . أرواح الموحّدين إلى موحدين . وأرواح المشركين إلى مشركين . مارّة فى أدوار التصفية والتطهير والتكامل . أو الفساد والشرّ والعذاب .

فى ذلك تقول الرسالة ٥٧ : « مَن سلك الجَدَد بمسالك الدعاة الأطهار .. ثم عَزَب عنه ، ورجَع إلى الباطل ، من غير إكراه ولا إجبار ، فهو ممن كان فى القِدَم من شيعة إبليس ، وقد رجع إلى العنصر الخبيث » ...

وتستشهد رسالة أخرى بالآية الكريمة ١٥٨ من سورة الأنعام : « لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنَت من قبل » .

وتمضى الرسالة ٣٧ فى تعريف الروح أو النفس ، فتقول :

فى الإنسان نفس بهيمية . من شأنها الشهوات الطبيعية . يغلب عليها الجهل . ولما كان الإنسان مركّبًا من جوهر يفعل ولا ينفعل ، وجوهر يفعل وينفعل ، وعَرَض ينفعل وليس بفاعل إلا بآلته ؛ ... فإنه محتاجٌ إلى محرّك يستخرج معرفة الجوهر من العَرَض .

فأمّا الجوهر الفاعل الذى لا ينفعل، فهو العقل المتّحد بالنفس الشريفة . أى غير النفس الحيوانية ؛ الحسية البهيمية ، الموجودة فى الإنسان والحيوان على السواء .

وأما الجوهر الذى يفعل وينفعل ، فهو النفس الشريفة ، لأنها عاقلة ، عالمة ، حيّة ، شفافة ، قابلة للصور ، فهى تقبل الجهل كما تقبل العقل .

وأما العَرَض ، الذى ينفعل وليس بفاعل ، فهو الجسم الذى تستخدمه الجوارح (الأعضاء أو أجزاء الجسم) فى إرادتها وهُويّاتها .

ولما كانت النفس الشريفة تقبل الجهل كما تقبل العقل ، فأيهما غلب عليها مالت معه . وإنّ جوهرها مكمَن فيها كما تكمن النار فى الزناد . ولو

مكث الزناد طول الدهر بلا قادح ؛ ولا حجر يحركه ، لما ظهر من الزناد نار .

كذلك النفس ؛ إذا عدمت التذكار بالعلوم الروحانية ، الذى هو غذاؤها ، مالت إلى الجهل ، لغلبة النفس الحسية البهيمية ، أما إذا لم تعدم رياضة الحكمة ، وغذاء العلوم الإلهية ؛ وكانت قابلة لما يتحد بها من آثار العقل ، تجوهرت وصفت ولحقت بعالمها . كالزناد الذى إذا حركه القادح استخرج منه الشرار . فتذكى بها النار .

والعلم أثر من العقل ، يتحد بالنفس الشريفة . فتقبله وتزكو وتنمو حتى تصير صورة روحانية . كمثل النطفة تتزايد حتى تكمل صورة الجنين ...

« فنقول إن الحجر معنى العقل ، والزناد معنى النفس . وظهور النار من الزناد بالقادح ... كذلك ظهور الصور الروحانية من النفس بمادة العقل وتأييد البارى سبحانه ... جعلكم الله أيها الموحدون ، ممن اقتبسوا من النار المباركة ... لا ممن أوقدوا ناراً فلما أضاءت حولهم ، ذهب الله بنورهم وزاد ضلالهم وظلامهم » .

مؤدى هذا التعريف ، أن الإنسان مؤلف من جسد . ونفس بالاصطلاح العادى . وروح . وإن كانت لفظتا « النفس » و « الروح » تستعملان فى مواضع كثيرة بمعنى واحد إذا كان المقصود بالنفس النفس « الشريفة » . مع وجوب التمييز بينها وبين النفس التى تؤدى معنى الحياة . وأما « النفس » و « العقل » ، روحانيا ، فهما منزلتان من منازل الحدود العليا حين تستعملان استعمال أسماء الأعلام .

ونستدل أن الروح قد تنحط إلى المستوى الحيوانى وغرائزه البهيمية . أو تسمو باتحادها بالعقل « الكلى » إلى مستوى الأبرار . ولكنها — كما تقول الرسالة ٣٩ — « إذا بعدت من الرحمة ، وعدمت الغذاء من نور الحكمة ، رجعت ضالة بعد هداها » .

هكذا نرى فى نصوص عديدة من « الحكمة » أن الجزاء والمثوبة للنفس هما بمقدار ما تكتسب من المعرفة والعلوم (الروحية) فى أدوار انتقالها من قميص

إلى قميص ، أى من جسد إلى جسد بالنقلة ، « بزيادة درجتها فى العلوم ، وارتفاعها من درجة إلى درجة حتى تبلغ حدّ المكاسرة » . بل حدّ الإمامة .

أما « العقوبة بسبب الجرائر ، والنيات الخبيثة ، والخُلْف ، والعناد » — كما تقول الرسالة ٤٧ — فهى فى « نقصان المنازل (الدرجات) وتغيير الصور يوم الجزاء والمعاد » .

ينجو من هذه العقوبة — تقول الرسالة ٥٢ — من كان « سامعًا مطيعًا . ناظراً بعقله إلى الملإ الأعلى . متعاليًا بصفاء جوهره عن دنس الأعراض . متميّزاً بنفسه الشفافة من أسقام الشكوك والأمراض الداخلة على نفوس عُصاة البشر ، الناقلة لها فى أخسّ الأجسام جزاءً لنكبها عن الحقّ » .

هنا لا بُدّ من الاستطراد ، دفعًا لما قد يخامر الأذهان بسبب غموض العبارة الأخيرة وأمثالها . ولا غَرْوَ ، فقد وَهِمَ أحدُ أعلام المطلعين أن فيها معنى المسخ . فأقول :

إن العقيدة تقول بنقلة الأرواح إلى أجساد بشرية . أمّا هذه العبارة ، ومثلها عبارة الرسالة ٥٤ فى توبيخ قتلة السيد وإنذارهم بتغيير « صورهم بالممسوخيّة فى القِرَدة والخنازير كما غيّروا هم صورة الحبْر الحكيم » ، فإنها من باب المجاز للتحقير . والبرهان على المجاز عبارة : « تغيير صورة الحبر الحوارى » الواردة فيها ، التى تشير إلى قتله وانتقاله إلى « صورة » بشرية أخرى . ولفظة « الصورة » تعنى « الجسم » . هكذا ترد فى لغة الرسائل كالرسالة ٩٠ التى تقول عن أحدهم إنه « عدا على بعض الإخوان فنقل صورته » ... تعنى أنه قتله فانتقل إلى صورة بشرية أخرى ... أى تقمّص جسداً جديداً . كأنّ تقول : « أنا الروح . وهذا الجسد لى الآن » . أى ثوبى فى هذه الحياة .

إن المجاز كثير فى المذهب الباطنى كقول الرسالة ١٦ : « وأما الخنزير فهو الضّد الروحانى . . . والذئاب أيمّة الضلالة » . يعنون بالخنزير الكافر . وبالقرد الشرير . وبالمرتدين عَبَدَة العجل . « والنفوس العاصية معكوسة فى الانتقال » . [الرسالة ٦٣] . وكتب « الحكمة » ملأى بالبراهين التى تثبت أن النقلة البشرية

لا تكون إلا إلى أجساد بشرية . حافلة بنفى نظرية المسْخ . كما سأوضح بما يلى .

نفى المسخ :

المسخ فى اللغة تحويل الصورة إلى صورة أقبح منها . فيقال مسخَه الله قرداً . وهذا ، دينياً ، حيثما ورد ذكره ، مجازىّ ، معنوىّ ، المقصود منه التحقير . هكذا ورد فى الرسالة ٢٧ التى تخاطب « خمار بن جيش » وتسميه « إبليس الأبلاس . معدن الشرك والوسواس . النغل اللعين . المسيخ الحزين ، خمار . . . » فى حين أن خمار « الممسوخ » هكذا ، كان حياً ، بصورة بشرية ، ممسوخاً معنوياً ...

وفى الرسالة ٤٢ : « قد مُسِخْتُم وأنتم لا تعلمون . فأنتم فى غمرة ساهون » يخاطب أحياءً فى أجساد بشرية . كما يفعل فى « مثَل ضربه بعض الحكماء » [الرسالة ٤٣] قاصداً بالمسوخ الوحوش ، إذ يقول : « أشباه المسوخ والذئاب . لهم أمثال فى التشبيه . يعرفهم الفطن النبيه . فبعضهم كالثعابين . وبعضهم كالأساود والأراقم » .

تامّل المجاز فى الرسالة ٥٦ : « يا أصحاب الأجسام الخالية من الأرواح ... والهياكل القائمة كظلال الأشباح ... عُكِسَت نفوسكم ، وتقهقرت فى درج المسوخية ، بالانخفاض والانْسفال » . هذه إذن مسوخية معنوية روحية .

وفى الرسالة ٦١ : « ... قد اختلطت بطبائع الخائب طبائعكم فى المسوخية . وتمازجت أرواحكم بروحه فى جحد الألوهية » .

وفى الرسالة ٦٣ : « ... عكست نفوسهم الآراء الخبيثة وأخلدتْهم فى المسوخية » .

وفى الرسالة ٨١ : « اللواتى خرجْن عن حقائق الديانات ، قد مُسِخْنَ وهنّ غافلات »

وفى رسائل عديدة ، غير التى ذكرت ، يرد ذكر المسخ ، فى معرض الذمّ

والتوبيخ . وهو تعبير مجازى، كما قلنا . وليس حسيًّا على الإطلاق. فإن عقيدة التوحيد تنكر المسخ فى التناسخ إنكاراً صريحاً . وتنفيه نفياً قاطعاً . حتى إنها استبدلت بلفظة التناسخ « التقمّص » ، خشيةَ أن يُفهم من التناسخ عقاب الأرواح الخاطئة بتناسخها أى مسخها فى أجساد حيوانات، فالمسخ من أقسام التناسخ . وهو ، و « الرسْخ » — أى انتقال الأرواح إلى نبات — و « الفسخ » — انتقالها إلى جماد — لا موضعَ ولا موضوعَ لها جميعًا فى هذه العقيدة .

أكبر برهان على ما أقول ، رسالة كاملة فى نفى المسْخ فى التناسخ . إلا بالمعنى المجازى المتضمن الإشارة إلى تشويه الروح الخاطئة . وفى تفنيده وانتقاد القائلين به وتكفيرهم .

هذه الرسالة سُمِّيَ باسمها كتاب « الردّ » المتضمن ٢٦ رسالة . من باب تسمية الكلّ باسم البعض. إنها الرسالة ١٥ أكتفى بإيراد ما يلى منها وفاءً بالقصد :

« مَن عبد إبليس اعتقد التناسخ (باعتبار التناسخ يتضمن المسخ) .. أما قوله (أى قول الكاتب موضوع الردّ) بأن أرواح النواصب (هم أعداء الإمام على) والأضداد ترجع فى الكلاب والقرَدَة والخنازير ، وبعضها فى الطير ، فقد كذب ، وأتى بالبهتان العظيم . إذ لا يدخل فى المعقول ولا فى عدل الله بأن يعصيه رجل عاقل فيعاقبه فى صورة كلب أو خنزير لا يعقل ما كان عليه فى الصورة البشرية ، ولا يعرف ما جنى . فأين تكون الحكمة والعدل فى ذلك . وإنما تكون الحكمة فى عذاب رجل يفهم ويعرف العذاب ، ليكون مأدَبَةً له وسببًا لتوبته » .

« وإنما يكون العذاب الواقع بالإنسان ، نُقْلَتَه من درجة عالية إلى درجة دونها فى الدين . وفى قلة معشيته وعمى قلبه فى دينه ودنياه ، كذلك نُقْلَته من قميص إلى قميص على هذا الترتيب .

« وكذلك الجزاء فى الثواب ما دام فى قميصه. فهو زيادة درجته فى العلوم ، وارتفاعه من درجة إلى درجة فى اللهوات (= انتقال النفوس) إلى أن يبلغ إلى حدّ الإمامة .

« هذه هى أرواح الباطنية وثوابها . وما تقدّم أرواح الأضداد وعقابها .

« فمن اعتقد هذا كان عالمًا بتوحيد مولانا جلّ ذكره . ومن اعتقد التناسخ خسر الدنيا والآخرة . ذلك هو الخسران المبين » .

كما أن رسالة « النور » من كتاب « اليونان » تسفّه القول بالحلول وهو مذهب المنصور بن الحلاج التميمى . وتقول إنّ نشتكين الدّرزى « اعتقدَ الحلول » ، مما كان من الأسباب التى أدّت إلى تكفيره وقتله .

التقمّص والمصير :

الجسد أو الجسم البشرى : فى عقيدة التوحيد ولغتها المجازية ، ثوب للنفس أو الروح . قميص ، فى اصطلاح المذهب ، تتقمّصُه الروح عند الولادة . وتنتقل منه بالموت فوراً إلى جسدٍ مولود . دون تمييز جنسىّ ، أو عنصرىّ ، أو مكانىّ . وتظل بعد كل موت تخلع به الثوب البالى وتلبس ثوبًا جديداً ، إلى نهاية الأجيال .

هذه الروح أو « النفس الشريفة » ، والعقل ، تتّحدان فى الجسد بالنفس الطبيعية أو الحيويّة — أى الروح والعقل والحياة — فتتألّف بها الشخصية الإنسانية . وعدد الأرواح لا يَزيد ولا يَنقص . . . على هذا الأساس قامت نظرية التقمص . وبهذه النظرية بُنى العقاب والثواب ، على قاعدة العدل الإلهىّ فى محاسبة الأرواح بعد مرورها فى الدهر الطويل . لا فى مدى حياة واحدة . بخيرها وشرّها . وقصرها أو طولها . بحيث يمنحها الدهر الطويل فُرَصَ الاكتساب والتطوّر ، والامتحان والتبدّل . لكى تحاسب حسابًا عادلاً على مجموع ما كسبت . فلا تكون الأرواح كيانات مبهمةً ، غير واعية ، لا علاقة لها بالاختبار والامتحان : يُتاح لبعضها مثلاً مدى حياة واحدة طويلة تنطوى على جميع احتمالات التوبة أو العصيان . ثم تُعتَبر مُساويةً لأرواح لم ترَ نور الحياة مع أجسادها سوى أيام أو سنين معدودة حرمت فيها فرص الاختبار الواعى والإرادة التى تختار ! !

وتظهر الشخصيات الإنسانية ظهوراً متواصلا ، بصور أو حالات مختلفة حسب استحقاقها . فى أدوار قضت الحكمة الإلهية أن تكون مختبَراً للأرواح . وامتحانًا لاتحادها بالعقل . وسبيلا طويلاً إلى العقاب والثواب . فى آخر الأدوار ، يوم الحساب .

إنها فى أدوار انتقالها تكتسب من المعرفة والعلوم الروحية ما ينقلها من درجة إلى درجة ، فى مراقى التكامل ، حتى تبلغ درجة الإمامة ، إذا كانت مؤهّلةً لها . وهذا منتهى الرفعة الروحية المتصلة بالإمامة ، أعلى مراتب الدين ، فى آخر أدوار التقمص المقصود منه بلوغ الكمال الإنسانى ، بالتطوّر فى سلسلة متواصلة من حلقات الزمان .

بانتظار هذه الغاية من التجارب والامتحانات والاختبارات تكون الأرواح على قدر اتصالها بالحقائق ، قد بلغت منازل الأنوار . لتظهر فى مجد انتصارها الأخير ، مشتركة فى مواكب الخلود .

فى هذا الانطلاق ، واتحادها بالعقل الكلى ، تكون قد بلغت الأعراف . كما تقول الرسالة ٦٦ :

« . . . فقد اقترب للناس الحساب ... وآن لتنوّر الأعراف أن يفور ... وقرب حصاد ما زرعته الأيدى ... لِتتميَّز نفوس المُحِقّين . وتتعالى فى درج الكمال ، مغتبطةً بالمعارف اليَقينية . وتسعد بالضوءِ المشرقِ عليها بعد تغْشيتِها بوَحْشة الظُلَم الطبيعية . وتتحلى بجواهر الفضائل ، وتتّحد بالأنوار القدسية . وتكون مُفْتَنَنَةً فى تمام الجواهر وتربيتها بالمِهن العقلية ... وفوزها بمملكة المعالم الإلهية . فهى باقية مدى الدهور والأبد . قد صفا لها الصِّدق اليقينيّ بصحة المذهب والمعتقد .

« هنالك تنُورُ بِدورِ التمام . وتتعالى بالضياءِ والإشراق . وترتفع نفوس أهل العدل ، ملتحفةً بقالب البقاء والأمن من الفساد والانحلال . قد خلصت لِطُهْر عنصرها ، وقوّة صفائها ، من دنَس الشكوك والأعراض . وتهذّبت بتحقيق قبولها للصور العقلية ...

« وتشعشعت بحقّ الظهور معاقد الأعراف أصحاب اليمين... واتحدت ، بعد مفارقتها للمواد الطبيعية ، بشرف وجود معقولات الروحانيين . وأرسمت بمقرّ قدسهم مراسم العقل الفعال ...

« عند ذلك تتلألأ أنواره (العقل) فى الآفاق والأقطار ، لفيضان التأييد . وتغدق سماءُ حكمته بهوامى التنزيه والتجريد . وتُنبت بها أرض الحقائق (نفوس الموحدين) ثمار التقديس والتسليم والتوحيد ... ويصحّ بالبعث الجزاءُ لنفوس الأنام . ويقوم الحقّ والعدل بقيام الإمام . ويخسر المرتدّون والشاكون... وتُسأل الموؤودة عما حملت من الأثقال والأوزار . . .

« هنالك تطّلع نفوس أهل الحقائق بصفائها على الخفيّات . وتبلغ بقوّتها المتجلّية لصور الحقّ نهاية النهايات » . . .

منزلة الاعراف هذه ورد ذكرها فى مواضع كثيرة من الحكمة . ووردت فى الآية ٤٤ — ٤٦ السورة ٧ من القرآن الكريم : « ونادى أصحابُ الجنة أصحاب النار ... وبينهما حجاب . وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كُلاً بسيماهُمْ » ... ففسر بعضهم رجالَ الأعراف (الأعالى) بأنهم ملائكة أو أنبياء على أعرافهم أى مراتبهم الروحية العالية العارفة بخفايا النفوس ، يستقبلون النفوس أو الأرواح الصالحة . وقال آخرون إنهم جماعة بين الجنة والنار يرجون رحمة ربّهم . وأقرب تفسير للتوحيد أنهم « الحدود » يميّزون بين الأرواح فى حسابها ، لعقابها أو ثوابها .

عنها تقول الرسالة ٦٨ : إنها الأرواح « الواردة إلى الملأ الرفيع عند استكمالها لعلوّ الدرجات . الثابتة بقدس الطهارة ومحلّ الأنوار ... عند تمام الإرادة (العقل) وكمال الأقمار ، الحاضرة لثواب المحقّين ، الشاهدة لعقاب الكافرين ». وإنّ « قائم الحق غاب بعد إيجاب الحجة على العوالم فى ملكوت باريه . إلى أجل يتمّمه بمعالم حكمته ويُنهيه ... إقامةً للقسط والحق والعدل ، فى يوم المعاد والقضاءِ الفصل » .

التقمُّص والمعاد :

في «الحكمة» رسالة تبحث في مهبط الروح أو النفس ومعادها، تستوجب إفراد فصل خاص لما تضمَّنته من مناقشة تلقي ضوءًا على ما أبْهِم علينا من غوامض هذه النظرية . إنها الرسالة ٧٠ . نجتزئ منها بما تتضمنّه من آراء تدلّ على ما للفلسفة من أثر في العقيدة . ولا سيما الفلسفة اليونانية . فإن الموحدين يعظمون فلاسفة اليونان كما فعل المعتزلة . بل يرفعونهم إلى منزلة الأنبياء . ويجعلون تعاليمهم تكملةً لمذهبهم الإسلامي في التفسير . تقول الرسالة :

« زعموا أنّ النفس أهْبِطت إلى هذا العالم ظَلْمًا ؛ لا عالِم عندها لزلّةٍ سبقت منها في عالمها الذي ذكروه ...

« فأقول : إن كانت أهبِطَت لتتزكّى وتطَّهر ، فالعدل يوجب أن يكون الموضع الذي تتزكّى فيه وتطهر ، أشرف من الموضع الذي تزلّ فيه وتتنجّس .

وإن كانت أهبِطَت مجازاةً لزلتها، وعقوبةً لما سبق منها ، لتكون في موضع يشاكل زلّتَها ، فلا معنى للعبادة ؛ لأنها إنما أهْبِطت للعذاب والعقوبة ، لتكون في الموضع الذي يشاكل دنَسها، ويليق بزلتها ونجسها . وإنّ موضع النجس ليس بمحلّ العبادة. ولا يجب أن يكون فيه من يستحقّ منزلة الإفادة .

إن النفس لا تخرج من هذا العالم، إذا كانت أهبِطت إليه لزلّةٍ سبقت منها في عالمها كما يقولون . إذ كلّ نفس زلّت في هذا العالم ، لا ترجع إلى عالمها الذي ذكروه . لأنها من جهة الزلة أهبِطَت .وما يتعرّى أحد في هذا العالم من الزلة والخطأ سوى المعصومين .

فإذا كان ذلك كذلك فهي لا تخرج منه .

وإنْ هم أقرّوا بأنها في هذا العالم زكت وطَهرت ، وبعد جهلها علمت ، صحّ قولُنا إنّ الموضع الذي تتزكّى فيه النفس وتطَّهر ، أولى بمجاورتها من الموضع الذي تزلّ فيه وتتنجس .

« وأنا أقول ما يشهد به العقل، إنه لا ينساغ في عقل أحد ممن أنصف

نفسه ، أن يحكم لنفسه أنها لم تزل ولم تخطئ فى هذا العالم . إذ كان يعلم ويحكم أنها علمت بعد جهلها .

« وإذا كان ذلك كذلك ، فقد صح أن النفس فى هذا العالم لا تخرج منه . ومعادها إليه .

« وبطل قول المقصّرين (المقصرين عن فلسفة فيثاغوروس وأفلاطون وأرسطوطاليس) إنّ للنفس عالماً غير هذا تتّحد بهويّته ؛ وترجع إليه لسموّ رفعة مرتبته ، مجاوَرَةً للبارى تعالى ، وإلحاداً فيه ، وحصْراً له ، وتحديداً لباهر قدرته ، وإضافةً لعلوّه ، وتنزّهه إلى الأثير . إعظاماً لبُعد المسافة بنظر العين . . . ولم يفرّقوا بين رفعة العالم الجرمانى (المادّىّ) وبين شرف جوهرية عالم النفس المتعالى عن كدر العالم الجرمانى » .

وعما ذكره الفارابى — فى الفصل الخامس من كتابه «بإزاء المدينة الفاضلة» — عن مفارقة الأنفُس للأجسام ، تقول الرسالة :

إن كان الشيخ الفاضل عنى بانفراد النفس ، فى ذاتها ، وآرائها ، وأفعالها ، وهيئاتها . وأن الأعراض ترتفع عنها فى ذاتها وجوهرياتها ، وهى موجودة فى الجسم كالمالكة له والحاكمة عليه . أو يكون عنى بمفارقتها للأجسام أنها فارقت الأفعال الطبيعية التى من شأنها ألا تظهر إلا من جسم . أو يكون سلب عنها لأفعال الجسميّة مع إثباته لوجودها . أو يكون عنى بقوله صعوبة تفهّم نسبتها إلى المفارقة وهى متحدة بالجسمانيات — أى مفارقتها بجوهرها ونزاهة أفعالها العلمية عن الهيوليات — إذا كان ذلك كذلك ، فقد زاد على الحكماء المتقدّمين . وأغرق فى طلب معلوم الدين .

وإن كان عنى أنها تفارق الجسم ، المالكة له ، والحاكمة عليه ، التى لا نعرف أفعالها إلا منه ، فقد أبطل رئيس المدينة الفاضلة هذا على ترتيبه الذى رتّبه وبنى قوله عليه . إن الرئيس إذا بلغ كماله الأخير ، فارق هذا الجسم وهذا العالم . فعلى ظاهر قوله هذا ، لم يبق فى العالم كامل يُفيض الكمال كما أفاضه هذا الرئيس المفارق للجسم والعالم . فقد انقطعت إفاضة الكمال ، لأنه

جعله صاحب المعمورة. وإذا انقطعت إفاضة الكمال فقد صار العالَم سُدى. ولا يبلغ فيه أحدٌ إلى الكمال الأخير. هذا على قوله وقول المتقدّمين. ووجب في العدل القول إنّ الرئيس قد ظلم أهل مدينته وجار عليهم.

أما الرسالة ٧٠ فتقول في ذلك:

« إن أمكنَ أن تبقى نفس هذا الرئيس، في هذا العالم، بعد كمالها، مدّةً ... فممكن أن تبقى مدّةً أكثر ... وإذا أمكن بقاؤها في هذا العالم مدّةً بعدَ كمالها، فالعدل يوجب، والحقّ يشهد. أن نسبتها إلى الكمال الأخير وهي غَرِقَةٌ في الأمزجة الطبيعية، أكمل وأشرف من نسبتها إلى الكمال بعد المفارقة ...

أقرَّ المتقدّمون أنّ النفس تبلغ كمالَها الأخير وهي متحدة بالطبيعيات.

فأوجب العدل والعقل في قولهم إنّ كمالَها، وهي متحدة بالجسم، الذي بلغت فيه كمالَها الأخير، أشرف وألطف من كمالها بمفارقة الجسمانيات. لأنّها تكون، وهي متّحدة بالجسم، مالكةً للعالمين. فتحكم بكمالها وقوة ذاتها على الطبيعيات، فمن ادّعى غير ذلك، فليُثبتْ لها فعلاً مجرّداً بعد المُفارقة » ...

هكذا تُجنِّح الفلسفةُ الإيمانَ. فيرتفع بالعقائد من مجاثمها إلى أجواءِ العقل. وهكذا نرى عقيدة التوحيد تقدِّس أرباب الفلسفة. لأنها تقدّس العقل. ونذكر كيف كان « لوثر » لتعصّبه شديدَ التنكّر للفلسفة، يشتم « أرسطو »، ويسمّيه « الخنزير. الدنس. الكذاب » ! ! !

أما الفارابي الذي تناقشه هذه الرسالة فإنه أكبر الفلاسفة المسلمين. شرح كتب « أرسطو » في سبعين سِفْراً. وسُمّي مهذّب العقول الثاني، بعد أرسطو. وكان أستاذَ ابن سينا. سُمِّيَ « الشيخ الفاضل » إشارة إلى كتابه « بإزاء المدينة الفاضلة ». وقد كان معاصراً للخليفة الفاطمي « القائم بأمر الله » الجد الأعلى « للحاكم بأمر الله» الذي كان كاتب الرسالة ٧٠ من دُعاته.

هذه الرسالة تنكر القول بأنّ للنفس عالَمًا غير هذا العالم « تتّحد

بهويته ، وترجع إليه ، ... مجاورةً للبارى تعالى ، وحَصْراً له . . . إعطاءً لبُعد المسافة بنظر العين ! ! ! »

ثم تقول عن القائلين بذلك إنهم « لم يفرّقوا بين رفعة العالم الجرمانى الجماد ، وبين شرف جوهرية عالم النفس ، المطّلع على المعقولات ، المتعالى عن كدر العالم الجرمانى ونعته وصفته . . . »

ولما كان مذهب الموحّدين يقدّس أرسطوطاليس ، فقد أخذوا عنه فلسفة التقمّص وتعريف الروح أو النفس كما يسمّونها . وأيّده كثيرون من الفلاسفة ومنهم الفيلسوف القرطبي الأندلسى ابن رشد فى قوله بأنّ هذه النفس جوهر مجرّد عن المادّة ، متعلّق بالجسم ، مدبّر له باتحاده به ، وأنّ انطباع المحسوسات يهيءُ النفس للكلّيات والمعقولات الهابطة عليها من « العقل الأوّل » المجرّد عن المادّة . وللنفس ملَكَة تستكمل بها النموّ بالمعرفة والاكتساب والتطوّر ، بمايسمّى « العقل المستفاد » أو المكتسب . فإذا أعرضت النفس عن العقل زال تَمَثُّلها للمعرفة . لأنها لا تعقل شيئاً إلا باتصالها بالعقل الفعّال . أى بواسطته . لا باستحالتها إليه . ولا الفناء فيه .

فإذا استحال الجسم بالموت ، عن أن يكون آلةً لها ، فإنها تبقى بعد مفارقتها البدن ، على استقلالها ، لا تعدم شخصيتها . ويجوز — والدروز يقولون بالوجوب لا بالجواز فحسب — أن تتعلّق بجسم آخر . تسعد معه بالعلم . أو تشقى بالجهل . وهى خالدة على كلّ حال .

هذا هو التقمّص على حاله التى سبق شرحها . ويزيد الدروز على ذلك أن هذا الانتقال ، والاتصال مع « العقل الكلّى » بالعلم والمعرفة والإحاطة بالحقيقة ، إنما هو التطوّر المنشود نحو الكمال الروحى الذى هو السعادة الأبدية ، غاية الغايات .

وينعتون بالبدائية الساذجة القول برجوع الروح بعد مفارقة الجسم إلى مشرقها العام ، أو مصدرها الأوّل ، أو الوجود الأوّل ، بدون غاية سوى تلقّى ماترجوه من جزاء على رصيد بضع سنوات تقضيها على سطح الغبراء ،

تعود بعدها إلى« الجلوس فى حضن إبراهيم » ! ! هانئة إلى الأبد ... أو تُقْذَف إلى أتون فوّار بالسعير يذيقها آلام الجسد الذى فارقته . حسبما تهيأ لها فى الحياة الدنيا . . .

خرافة النطق :

بعض الغلاة ، ممن ليسوا من علماء المذهب ، يؤخَذون بما يتواتر بين السذّج من العامة ، عما يسمُّونه « النطق» . أى أن الروح ، على زعمهم ، حين تنتقل من جسد إلى جسد ، تحمل معها أحياناً معلومات عن « الدَور » أو الجيل الذى كانت فيه . « فتنطق » ؛ أى تحدّث عنه بما تعيه الذاكرة . كأنما الذاكرة جهاز روحى ، لا عقلىّ مكتسب ... ويروون قصصاً و « وقائع » عن ذلك ، محيِّرةً ، مدهشة . يكاد لا يرقى إليها الشك . وقد شهدت بعضها بنفسى . وما زلت بها حتى تبيّن لى زيفُها . مع الاعتراف بأن أولئك « الناطقين » كانوا يبدون مخلصين صادقين بما يعتقدون أنّه وقع لهم فى « حياتهم الماضية » .

فما السرّ فى ذلك ؟

إننى لم أجد كلمةً واحدة ، فى جميع كتب « الحكمة » ، تثبت هذا الزعم . بل وجدت ما ينفيه نفياً قاطعاً ، لا يترك مجالاً للتأويل . مما يستوجب تعليل هذه الظاهرة ، التى كثر تداول أخبارها ، تعليلاً علمياً . حتى لا يجثم هذا المجهول فى ظلمة العقول .

ولعلّ المصدّقين وجدوا ، أو أرادوا ، من ورائه ، إثبات نظرية التقمّص ، من أقرب السبل والعيان . ذلك شأن من أرادوا إثبات النبوءَات أو القداسات ، إلى يومنا هذا . فقصّوا على الناس أقاصيص العجائب المنسوبة إلى الأولياء والقديسين . وردّدتها الصحف ، إرواءً لغليل المتعطشين للخروج من قيود الواقع الجاسى إلى سرحة الخيال فى رياض المجهول . وتحدّياً للموت بتحويله إلى مرحلة تجديد للوجود .

من الجور وسْم الخرافة بالنفاق والتضليل . أو بالإيمان الباطل . فالحق

والباطل كثيراً ما يتداخلان . وأذكى العقول قد تحار أحياناً بينهما . بل ربما كان الباطل نتيجة تعليل صحيح من ناحية المنطق . إلا أنه مبنىّ على خبر متواتر غير أكيد . أو على إشاعة سارية لا يليق بالنبهاء التعويل عليها .

فى القرون الخالية شاع « علم » التنجيم . وانتحله علماء فى ذلك الزمان سفهتهم رسالة « الرد » فى « الحكمة » . واعتبرته من فنون الشِّرْك، بالرغم من روايات بعض الأديان لظاهرات فلكية اتخذتها دلالات وبشائر، لأحداثٍ ومصائر . . . .

كما شاعت ، حتى الآن ، القنقنة ، أو كشف المياه الجوفية بالقضيب . والتبصير . وقراءَة الكف . واليوم نواجه هذيان أطفال ، يقنّون له بالإيحاء والتلقين البرىء ، مساربَ إلى العقول الخصبة الصغيرة . يغرسون فيها أفكاراً . وينقلون إليها أقوالاً تصبح باللقاح الذهنى كأنها منهم . وتكبر معهم راسخة فى عقلهم الباطن . وهم لا يدركون مصدرها الصحيح . فيعيشون بحياةٍ مزدوجة فى عالم من الوهم والارتباك ، أفراداً أفذاذاً حائرين ؛ ضحايا وسَط غاشم مظلم بمعزل عن نور اليقين .

هذه الظاهرة لا يثبتها العلم ، وإنْ كان « انتقال الأفكار» من عناصر الإيحاء فيها . وربما كانت تسميتها « النطق » مستخرجة من لفظة « النفس الناطقة » التى تعنى شيئاً مختلفاً يقصد به التمييز بينها وبين النفس « الحيوانية » والنفس « الكلّية » . و « الناطق » نعت لواحد من النطقاء الخمسة ، واضعى الشرائع الدينية .

فى علم النفس أثبت البحث أنّ « الوسيط » فى انتقال الأفكار يردّد ما لا علم له به فى الحالات العادية . ينقلها من عقول أناس آخرين . أما الزعم أنّ الطفل ينطق بمعلومات حياة سابقة ، فليس له مستند علمىّ على الإطلاق .

وحين تهيم نزعاتنا ، صوراً شاردة فى أحلامنا ، لا تكون النفس منفصلةً عن الذات البشرية — كما اعتقد بعضهم خطأ وبنوا على اعتقادهم نقلها للمعلومات . وإنما هى الأفكار الكامنة فى تلافيف الدماغ ومطاويه الخفية تجد مَسْرحاً لها ومنطلَقاً فى حالة من النوم طالما تعاورتها الأبحاث والظنون . ولا علاقة لمادة

الروح بهذه الحالة الفكرية ، واختباراتها الطارئة ، كما يقول الغزالى وكثيرون غيره من الفلاسفة ، وكما يبيّن مذهب الموحدين .

وإنى مثبت هنا ، بالنصوص من « الحكمة » ، صحة ما أقول . ففيها الحجّة القاطعة لكلّ تأويل وتضليل . والنصّ هو المرجع الأصيل للموحّدين إذا كانوا به مؤمنين . وبحكمه راضين مقتنعين :

١ — تقول الرسالة ٦٧ :

« فإن قال قائل ما لنا لا نعرف ما مضى من الأدوار ؟ قال له المحتجَ بالحقيقة [بهاء الدين] : إنك لو ذكرت ، وعرفت ، لشاركتَ المبدعَ فى غيْب حِكمته ، ولكان ذلك عجزاً من البارى . ولكان يفسد النظام . . .

« لأنك لو عرفت نفسك ، وما كنت عليه فى الأدوار الماضية ، لعرفتَ غيرَك ، ولكنت أيضًا عارفًا بمبدعك الذى ردّدك فى الأشخاص . ولو عرفتَه لعرفت جميع العالم . . . . ولتساوى فيه العالِم والجاهل . والناقص والفاضل » . .

٢ — وتقول الرسالة ٧٠ :

« إن النفس لا تنفرد بفعل وهى بائنةٌ عن شخص . لأنه إذا انحلّ وصدر عنها . عدمت الألفاظ . . . فأمّا ما قاله الشيزرى من انفرادها فى المنام ، وتذكُّر ما تشاهده وتخبر عنه من الأحلام ، فإنها إنما تحكى صورة المحسوسات . وتمتدّ هذه النفس مع المزاج . فتتصوّر ما تكون قد شاهدته من المرئيات . . . فإذا كان المولود أعمى لا تقدر نفْسُه على الانفراد فتتصوّر فى المنام شيئًا سوى ما عهِدَتْهُ » .

٣ — وتقول الرسالة ٦٩ :

« لقد شهدتُ مناظرة بعض المموّهين ، ممن أخذ دِينَه عن داع يدّعى علم

الفلسفة . فإنه أسهب أنّ النفس تتحد بمعلوماتها فى معادها على الانفراد! وكان أنفس ما استشهد به، مما أخذه عن داعيه المموّه المحرّف ، أو شيخه الخرف المزخرف! أنّ النفس تنفرد بأفعالها ... فردّ عليه بعض الموحّدين » ...

٤ ــ كتاب « النقط والدوائر » : ــ نُسَخٌ منه فى مكتبات ميونيخ . وتوبينكه . وتمبرغ ــ يقول فى دحض خرافة « النطق » . وكأنّه يردّ على من قال بها ، فيما بعد . مؤكداً أنّ النفس « الناطقة » ــ أى غير الحسية الحيوانية التى هى الحياة ــ تحتاج إلى الجسم . ولا تستغنى عنه طرفة عين ، ولها فى الجسم ممازجات ومشاركات وحواس تساعدها .

« فما تقدر النفس الناطقة على الذّكْر إلاّ بالقوّة المذكّرة التى فى الجسم [وهى فيه] ...

« ولا تقدر على تَخَيُّلِ الأشياء إلا بالقوّة المخيّلة التى فى الجسم ...

« ولا تقدر على التفكُّر إلا بالقوّة المفكّرة التى بالجسم ...

« ولا تقدر على التمييز إلاّ بالقوّة المميّزة التى فى الجسم ...

« ولا تقدر على الحفظ إلا بالقوّة الحافظة التى فى الجسم الذى هى فيه ، أيضًا ...

« القرب والبعد فى انتقالها سواء . إذا فارقت جسمًا اتصلت بسواه فوراً .

« والعقل الطبيعى خاصّ بالنفس الحيوانية [أى الحياة التى يتساوى فيها الإنسان والحيوان] . فإذا فسدت هذه النفس الحيوانية ، ارتفعت النفس « الناطقة » . وانتقلت إلى جسم جديد [فيه عقل طبيعى ونفس حيوانية تتحد بهما) . بزوالها عن هذا الجسم وفراقها له تعدم الأفعال أى لا تقدر النفس تنطق بغير لسان. ولا تنظر بغير عين . ولا تسمع بغير أذن . ولا تفعل بغير آلة . إلا الجسم الذى هى فيه . يؤيّد ذلك ويؤكده. ويقوّى برهانه ويشدّده ، براهين عيانيّة . وإيجاب حكمة ربّانية » .

ثم يزيد الكتاب مؤكداً :

« لما كانت النفس ، وهي حالّةٌ في الجسم، تمازجُه في الأفعال، فلهذا إذا انتقلت منه احتجبت عليها جميع المعارف الجسمانية التي اكتسبَتْها فيه .....

« أما المعارف (أو المزايا) الروحانية فتكمن فيها بالقوّة ... إلى انْ تنشأ في الجسم الثاني . فتبرز منها (أي من القوّة) الأعمال والمعارف بقدر ما تناله من التوفيق .

« وأما بعد القيامة فترتفع الحجُب عن النفوس . فتُعْطَى قوّة تدرك بها جميع معارفها وأعمالها السابقة . من البداية حتّى يوم القيامة . وتصبح الأزمنة الماضية عندها كأنها يوم واحد تتذكر فيه جميع ما علمت وعملت . و « يوضح لها بأيّ ذنْب أخذت . فتُجازَى كلُّ نفسٍ بما اقترفته ، بعد التذكار والبيان . يوم يتذكّر الإنسان ما سعى » .

« وأما في دار الدنيا فليس للنفوس الناطقة إدراكُ ما مضى من الزمان» ...

أوردتُ هذه النصوص ، دحْضاً لكلّ ادّعاء ، وقطْعاً لكلّ « واقع » مزعوم ... ولم أدخل في نقاش ، وإن توافرت له البراهين ، والسؤالات المحرجة للمدّعين ؛ كقولنا : لماذا انحصرت هذه الظاهرة بالعامة الساذجة من الدروز دون الخاصّة من نبهائهم ، ودون سائر شعوب الدنيا ؟ لماذا اقتصرت على التواتر دون التقصّي العلمي ؟ لماذا كانت اللغة العربية ، دون سائر اللغات ، وسيلة النقل الفكري ، ما دامَ انتقال الأرواح جارياً بين مختلف الشعوب ، وما دامت هذه العامة تعتقد أن أبناء مذهبهم منتشرون في مختلف أقطار الدنيا . هذا إذا لم تنحصر النقلة في كل فئة وإقليم ! ! ! لماذا لم يذكرها عالم أو مؤلف في شؤون الدين منذ الأمير السيد حتّى اليوم الحاضر ؟ ؟

ونستطيع أن نمضي في سلسلة طويلة من السؤالات ، لولا التزامنا جانب الجدّ في الموضوع ، والدفاع عن مفهوم العقيدة عند الدروز . دون إقحام أي معتقدٍ شخصيّ لي هو بيني وبين الله .

التخيير

مذهب التوحيد ينفي القدَر الحتميّ أو الجبر ، بالرغم من أنه جرى على ألْسُن العامة من أتباعه ، وشاع عنهم قولهم بالمقدّر لجهلهم فلسفة المذهب ، وحرمانهم ممن يشرحها لهم. وما أقَلّ مَن يفهمها منهم، وأبعدَه عن الناس فى « خلواته » . . . .

كما أنّ المذهب ينكر « القدريّة » المطلقة . فهو ليس مع الأشعرية فى أنّ كلّ شيء مقدّر محتوم . ولا مع المعتزلة الذين نُسِبَت إليهم القدرية . إذْ أنّ المقدّر الجبرى يتعارض مع الإيمان بالعدل الإلهى ، وبالتخيير الذى يجعل المرءَ مسؤولاً عما يصدر عنه بإرادته واختياره ، عند مواجهة العقاب أو الثواب فى ميزان العدل والحساب . وعلى هذه العقيدة ، القائمة على التخيير ، يسمّى الدروز أنفسَهم ، كالمعتزلة ، « أهلَ العدل والتوحيد » .

على عقيدة التخيير تقوم فلسفة التقمّص . إذ يكون تكرار الروح فى مدى أجيال البقاء البشرى ، عرورها فى أدوار الاختبار والتجريب والامتحان إعداداً لها وتطويراً ، قبل وصولها إلى الآخرة التى تنتهى إليها . فإن لم يكن المرءُ مخيَّراً فكيف يحاسَب ، إذا كان ثَمّ حساب . هذا هو منطق القدرية ، من حيث إن للمرء قَدَراً على أفعاله .

ولكنّ عقيدة التخيير ليست فى الغلوّ كالقدرية . إنها تحدّد وتحصر قَدَر المرءِ فيما يُسألُ عنه ، وفى نطاق ما لَهُ يدٌ فيه . ولا تُخرجه على كل حال عن علم الله الأزلىّ . و « القدرية » تسمية ملتبسة ، أوْلى أن تطلَق على القائلين بالقدَر الإلهىّ . أطلقت على المعتزلة خطأ . فقد كانت التسمية لفرقة سابقة ، أحقّ بها مَن اعتقدوا أن القدر من الله ، خيراً كان أم شرًّا . والمفارقة ظاهرة .

بين الجبر و « القدرية » يعتقد الدروز أنّ الله وهَبنا العقل ومنحه القدرة على تكييف ما لا قِبَلَ لنا بتغييره من أحكام القدَر الإلهىّ . وعلى مقدار

تحكمه فيما خُيِّر فيه تكون التبعة والحساب .

ينفون الجبر . لأنّه حَمْلٌ على الفعل . وعلى ترْك الفعل . لا مجال فيه لطاعة . ولا لعصيان . وإكراهٌ لا يستوجب عقاباً ولا ثوابا . وحاشا الله أن يجبر العباد على معصية يعاقبون عليها . أو يثيبهم على حسنات لا يد لهم فيها .

وينفون التفويض المطلق . يستبدلون به « تقدير » الاستطاعة ، على الخير الذى تدعو إليه الرسالات السماوية . وعلى الشرّ الذى تنهى عنه . هذه الاستطاعة نفسها تقدير على العمل من الله . أمّا العمل ، فى حدّ ذاته ، فهو من العبد ، والعبد مسؤول عنه .

يعبّر عن ذلك، الإمام الرازى، مع أنه كان ينتصر لمذهب الجبر ، بقوله : « إن القول بأن العبد ليس له قدرة ولا اختيار ، جبْر محض . والقول بأنّ العبد مستقلٌ بأفعاله، « قدَر » محض . وهما مذمومان . والعدل أن يقال : إنّ العبد يفعل الفعل . ولكن بواسطة قدرة وَداعيَة يخلقها الله فيه » .

ويحتجون بالآية (١٥ السورة ١٧) : « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه .... وما كُنّا معذّبين حتى نبعث رسولاً » . أى أنّ الله يبعث رسولاً للهداية . وهذا دليل على أن « لا وجوب قبل الشرع » كما يقول البيضاوى فى تفسيره لآيات القرآن الكريم . ومثله يفسِّرون الآية ١٦ (السورة نفسها) : « وإذا أردنا أن نُهلك قريةً أمَرْنا مُتْرَفيها . . . » بقولهم إن الأمر بالطاعة . وعبارة الآية أشْبَه بقولك « أمَرْتُه فعصانى » ؛ وهى صياغةُ اجتزاء .

هذا فيما يتعلّق بالأفعال الإرادية التى يُسأل عنها الإنسان ، ويقدر أن يمتنع عنها أو يأتيها . لأنّه مزوَّد بالعقل يميزّ به الحقّ من الباطل ، والخيرَ من الشرّ ، اختياراً هو « أهمّ فارق بين الإنسانية وبين الحيوانية » كما قال أحد الفقهاء . وهو مخالف للجهميّة القائلة بأن الإنسان مجبور فى كلّ شىء دون استثناء .

وقد شاع القول بالجبر فى التاريخ الإسلامىّ ، بعاملَى الفلسفة والسياسة . فلأغراض سياسيّة نُسبت فظائع كثيرة إلى القدَر . به أراد الأمويون تبرير

اضطهادهم وتعذيبهم لأتباع عليّ . كما أريدَ الآن ، في الكنيسة البابويّة ، تبرئة اليهود من ذنبهم بصلب المسيح ، بحجّة أن الصلب قَدَرٌ من الله لخلاص البشر .

وكان شيوعه بين عامة الدروز ، مع عقيدة التقمّص ، مثارَ بسالتهم التاريخية ، وينبوعَ شجاعتهم التي لا تُقْهَر . فمن نوادرهم الطريفة التي يتناقلونها ، أنّ أحدهم واجَهَ عدوَّه المهاجم الذي باغته بالرصاص ، وهو أعزل ، بقوله : « أطلِقْ رصاصك . سأغيب عنك خمسة عشر عامًا ، أعود بعدها . ولن تُفْلت منّي » ! . . .

أمّا كيف يوضح المذهب نظريّتَه ، فذلك بفصل الأعمال ذاتها عن التكوين الخُلقيّ في الإنسان ، بحيث يُفسح المجال للإرادة . أي أنّ بعض الأفعال يمكن تجنّبها إذا تبيّن شرُّها . وهي مهمّة الرسالات الدينية والتعاليم الأخلاقية . وبعبارة أخرى ، إنّ الله خلق عناصر تكويننا وأتاح لنا استعمالها حسب استطاعتنا . وإنّ الدين وعلم الأخلاق ضروريان حيث يفسح الله للإنسان إرادة الاختيار في مجال الأقدار . وبذلك يبطل شمول الإجبار على أفعال تحاكمه عليها العدالة الإلهيّة .

يجمع القرآن الكريم ذلك بقوله [الآية ٢٨ و ٢٩ سورة التكوير] : « لمنْ شاء منكم أن يَستقيم . وما تشاءُون إلاّ أنْ يشاءَ الله » . مُشيرًا إلى حرّية

الاختيار ، وحدودها . فلا إطلاقَ في الجبر ولا في التفويض ، « فمن شاء فليؤْمنْ . ومن شاءَ فليكفُرْ » [الآية ٢٩ من سورة الكهف] . والمؤاخذة على الاختيار . فأي معنى للوجود إذا كانت حركة الأكوان كلها تسير على مخطّط معلوم مرسوم لا تَبَدُّلَ فيه ، ولم يكن في أحداث الغد « المكتوبة » ، المقدّرة ، أيّ احتمال للتغيير ؟ أو إذا كان التاريخ مسجّلا مختومًا قَبْلَ ابتدائه ؟ وكيف تؤدّي الأديان رسالتها ؟

ويستشهدون بالآية [٣٥ السورة ٢١] : « . . . ونبلوكم بالشرّ والخير فتنةً . . . » وبالآية ٧ السورة ١٧ : « إنْ أحسنتم أحسنتم لأنفسكم . وإنْ أسأتم

فلها » . فإن للإنسان يداً فى مجرى التاريخ ، وفى الوراثة ، وفى التطوّر . له نصيبٌ فى كل ذلك ، مهما يكن ضئيلاً . وهو داخل فى علم الله . تماماً كما يعرف الغارسُ نوعَ الثمر الذى ينتظره ، وإنْ تبايَنَ الحملُ واختلفت الجودة .

فلننظر فى كتب « الحكمة » كيف وردت نظرية التخيير :

جاء فى الرسالة ٥٣ :

« . . . . أعيرونى أفهامكم . . . إن البارى جلّت آلاؤُه منزّه عن الظلم . . لم يهمل بريّتَهُ . ولم يُخْلِهم فى كل وقت وزمان من داع إلى كلمة التوحيد والهدى . . لتقوم الحجّة على جميع الأُمم . . .

« إن أمر البارى عَرْضٌ وتخيير . ونَهْيَه عظةٌ وتحذير . لأنّه لو كان أمْرُه حَتْماً واجباً ، ونَهْيُهُ جَزْماً لازباً ، لم يشكّ فى توحيده من البريّة أحد . وتساوى الكافّةُ فى الدين والمعتَقَد . وعند تساويهم يبطل الثواب والعقاب » .

وفى الرسالة ٤٢ :

« . . . قد أوقفكم موقفَ التخيير . فهل فى العدل سوى التخيير ؟ . . فإنْ قال قائل : إنّ أمْرَ البارى لا يقدر الخلق على ردّه . [نقول لَهُ] إنْ كان قد أمَر ونهى ، ولم يُقبَل الأمْرُ والنهْى ، فهذا بعض الضّعف أو كلّه . لقد جهلْتَ أمرَ البارى ونَهْيَهُ . إذْ لو كان أمرُه حتْماً ، ونَهْيُه جبْراً لمْ يشكّ فيه أحد . وأطاع الخلْقُ بأسْرِهم . وإذا كان ذلك كذلك ، سقَط التفاضُل . وعند سقوطه يبطل الثواب والعقاب . وتتحلّل معاقدُ الديانات . وكان الخلق سُدًى . وحاشا الله . بل أمْرُه تخيير . ونهْيُه تحذير . ليقوم العدل بالتخيير فى الخليقة . ويصحّ الثواب والعقاب الموعودان فى يوم القيامة . . . . ليحقّ عليكم العذاب بما أُمِرْتُم به وأغفَلْتُموه . وتقوم الحجّة عليكم بما صددتم عنه من الحقّ وبَهَتُّموه . . .

يوم تجد كل نفس ما عملت من خير مُحْضَرًا، وما عملت من سوء تودُّ لو أنّ بينها وبينه أمدًا بعيدا . . . لتكون الحجّة قائمةً بالعدل الذى هو التخيير » .

وفى الرسالة ٧٠ :

« . . . نقول عرّفونا سبب تفاوت هذا العالَم فى منازلهم وارتفاع درجاتهم . وفى شرف الأنفُس ، وقبولها للعلم ، وضَعْفها ، واختلاف آلاتهم . . . حاشا الله أن يجعل فى بعضٍ قوّة واستطاعة ، ويمنع البعض . . . فإن كان قد جاد على بعضٍ بالمعونة ، وحرم البعض ، فهذا هو الجبر . ولا ثواب للمَجُودِ عليه ، إذْ هو مُجْبَر بما أفيضَ إليه وجُعِل عندَه من قوّة القبول . ولا عقاب على الذى بُخِل عليه . تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا . . . بل الجزاء بعد التخيير . وما تفضّل عليها من التمييز . . . ومجازاة الأنفس بما كسبت » . والآية ١٧ من سورة المؤمن تقول : « . . . . تجزى كل نفس بما كسبت » .

وفى الرسالة ٧٤ :

« العقاب مرفوع عن المكْرَه والمجْبَر . . . فباختيار الناس للجحد والإنكار يعاقَبون . وباختيار أهل الطاعة والصبر على المحن ، يثابون »

وفى الرسالة ٦٧ عن الغيبة التاركة لهم الحيرة فى العبادة :

« لو لم يغب لكانت العبادة جبْرًا وقسرْا . ولتساوى فى ذلك أهل الأرض . ولكان العالم مجبرًا ، لا مُثابًا ، ولا معاقَبًا . لأنّ المجبر لا يُثاب ولا يعاقَب».

الثواب والعقاب

لكي نُلِمّ بمعنى العقاب والثواب عند الموحدين لابد لنا من إلقاء النظر إلى تعريف إخوان الصفاء لهما . فإنهم يقولون إنّ الجحيم عالم الفساد حيث يقيم الأشرار فى الإثم والعذاب . والنعيم جنة الأرواح الطاهرة الخالية من الألم والندامة . ويسخرون من القائلين بنهاية العالم ، وقيامة من فى القبور من الموتى . فالنهاية ليست دمارًا . إنها حالة تنتقل إليها الروح . وحاشا لله أن ينتقم بتعذيب أجساد الخطاة فى بحيرة من نيران تصيّرها رماداً ، يُعاد أجساداً ، فرماداً . دواليك إلى نهاية الدهور ! أو أن يجود على الناجين بحور وولدان فى فردوس حسّىّ كجنات الأرض ! إلاّ أنْ يُفسَّرَ ذلك الرمز روحانيًّا كما سنرى .

ينكرون وجود جهنم ناريّة ، فى مكان ما من الأفلاك السّماوية ، بين عوالم فى مجرّاتها أشبه بذرّات الغيوم ، تبدو أرضنا بينها كشرارة تافهة من شعاع الأكوان . وينسبون إلى جهل الأقدمين تصوّرات مثلها عن بدء الخليقة ، والتكوين ، والنهاية فى الجنة والجحيم . وصور أرضٍ مبسوطة مسطحة ، تضيء لخدمة الإنسان شمسُها ، وتهديه فى سُراه نجومها .

والموحّدون يصفون النعيم والجحيم بقولهم [الرسالة ٣٧] إن الجنّة هى توحيد الخالق . والجحيم هو الجهل والشرّ . وثمار الجنة المعرفة الحقيقية . ويتساءلون [الرسالة ٦٧ « من دون . . . »] كيف نؤمَر بمعرفة الله إذا كان مستويًا على عرش فوق سموات سبع ، ونحن نجهل ما وراء أقرب جدار إلينا ؟

يكاد ينطق بلسانهم شاعر الإسلام ، الفيلسوف الباكستانى ، محمد إقبال إذ يقول : « إن جهنم ، فى كلام القرآن ، نار الله الموقدة فوق القلوب . والجنة بهجة الانتصار على قوى الانحلال . فليس فى الإسلام هلاك أبدىّ . وليست جهنم أتونًا دائم السعير لعذاب إله منتقم . إن الحياة سَعْىٌ مستمرٌ نحو المعرفة . كلُّ ذات حرّة تُحدِثُ فيه تطوّرًا جديدًا وتفتح بابًا للخلق والإبداع » .

و « حكمتهم » تقول [الرسالة ٦٩ . . .] :

« إن الثواب ، الذى هو أفضل العطاء وأجزلـه ، وأشرف الجزاء وأكملـه ، هو إدراك المعلومات الإلهيّة ، واقتناء الفضائل البرهانية . وإنها السعادة القصوى . هذه السعادة هى الغرض فى وجود الإنسان . وهى كمالـُه الذى لا يُبقى لنفسه شوقًا إلى غيرها . ولا هى مما يُطلَبُ ليُنال بها سواها لأجْل تمامها وكمالها ... هى الكمال الأخير للنفس . . . إنّ المعنى الواجب الوجود ، لذاته لا لغيره ، هو العقل . . . وما دون السعادة التى هى العقل ، إدراك المعلومات الإلهية . فهى الواجبة الوجود بالإضافة إلى العقل . . . فإن المعلومات الإلهية لا توجد معرفتها وتحْصل إلا بالعقل . . . .

« وأمّا العذاب فهو النقلة من درجة روحية إلى درجة دونَها . والثواب زيادة وارتفاع فى الدرجات . ذلك هو الثواب والعقاب» .

وعن الجنة والنار تقول ، معرِّفَةً ناقدةً [الرسالة ٣٧] :

« توحيد الله هو النعيم السرمد . . .والكفر والجهْل والغىّ هو الجحيم . . .

« ولما كانت الجنة ، من حيث الحسّ ، أشجارًا مثمرة ، ومياهًا جارية ، تعلّقت بها أوهامُهم . . . ولو عرفوا الجنة (التوحيد) لسارعوا إليها ، وكانوا فيها مخلّدين ، وعلموا أن الله ما أحالهم على عدم . . . وأما أن الجنة عرضُها السماوات والأرض ، فقد جهلوا معنى هذا القول . . . الجنة هى الدعوة الهادية . وثمارها العلوم الإلهية الحقيقية التى بها يتخلّصون من جهلهم . وأما معنى طولها فهو « العقل الكلى » . وعرض كلّ شىء غير منفصل عن طوله . كذلك « النفس » غير منفصلة عن العقل لقبول المادّة الإلهية . فمن تغذّى وروىَ من علوم هذين الأصلين ، فقد أكل من ثمار الجنة وشرب من مائها ، بالحقيقة والمعرفة .

« وأما النار الكبرى فهى غلَبة الشقوة وهوى النفس البهيمية الغالب عليها الجهل » .

يوم الدين :

يوم الحساب فى هذا المذهب ليس يوم قيامة . إذ ليس فيه موْت للأرواح، ولا قيامة لها ، ولا بعث . فالأرواح لا تموت لتُبْعَث ، ولا تنام لتوقَظ . بل إنّ يوم الحساب أو الدينونة نهايةُ مراحل الأرواح وتطوّرها . إذ يبلغ التوحيد غايتَه من الانتصار على العقائد الشركية . وينتهى الانتقال والمرور فى « الأقمصة » المادية ، لتتّصل الأرواح الصالحة بالعقل الكلى ، على مقدار تكاملها . ولقد تبلغ من الطهر درجة الكمال .

ذلك هو الثواب يوم الحساب . وهو نهاية النهايات . أما العقاب فهو عذاب التقصير عن بلوغ تلك المراتب والغايات . وهما الجنة والنار فى لغتهم الرمزية التى تتحدث عن « ظهور جند الله من الشرق » و « إطلاق سيف الحق » فى عنق الباطل والشر فى الخلق » . . .

إن ما ورد فى بعض الرسائل عن اقتراب يوم الحساب كان « للتنبيه والتحذير » . و « البشارة والإيقاظ » . والوعد والوعيد . « يوم ترى المشركين مثل السكارى . . . وتجازَى كل نفس بما كسبت » [الرسالة ١٧ — وقد كتبت سنة ٤١٠ ه . أي قبل الغيبة]

ومثله ما جاء فى الرسالة ١٦ فى السنة نفسها :

« أيام يسيرة . ثمّ يمهّد الأرض حتى لا يبقى عليها منافق إلاّ وهو صريع بطشه....عندئذ تملأ الأرض عدلا وقسطاً » . ومثل هذا الإنذار والتحذير كثير بعد الغيبة ، لا تخلو منه رسالة حثًّا للمؤمنين وتحذيراً من حساب يوم الدين . فالرسالة ٥٦ تقول :

« . . . إيقاظ لأهل النِّقَل النفسية ، الغافلة نفوسُهم عن بعث المعاقَبة العاصية ، اللاهية عن ثواب المطيعة ، المتبلّدة عند العرْض والحساب . . . بما احتقبتْهُ بعد عدل التخيير فى الأزمان الخاليات » .

والرسالة ٦٠ تقول :

« هنالك ينكشف صبْح الحقّ عن غيهب الظلام .. ويتجلّى العدل بظهور الهادى الإمام . القائم بجزاء الأرواح .. . فاغتنموا . . . قبل ختْم الأفواه

وقطْع الكلام، وطيّ الصحائف وجفاف الأقلام » .

وتصف الرسالة ٦١ ذلك اليوم بأنه :

« يومٌ تذهل فيه العقول والنفوس . . . ويكون مسيح الحقّ ، على ما كسبت كل نفْس ، هوالمجازِى» .

ذلك كما تقول الرسالة ٦٣ :

« عندما تغلق الأبواب . فى يوم العرض والحساب . فتجازى كل نفس بما اقترفته ، بعد التذكار والتبيان . . . »

وتصفه الرسالة ٦٢ بهذا الوصف الرمزى :

« هنالك تبطل معاذير الأنام . ويتجلّى الحقّ والعدل من فلك الغمام . فتنبَّهوا ياأهلَ البصائر . . . عند ذلك يفور تَـنُّورُ الحقائق بمكنون الأنوار . ويتصل ضياؤُه بالآفاق والأقطار . . ألم ترتقبوا فى الحكمة سبيل النجاة والهداية ؟ وبلغتم فى التوحيد أوانَ الكشف حدود النهاية . . . فأرِيقوا أسماعكم قبل ارتفاع الرحمة وغلْق الأبواب . ونشْر الصحف بجرائم الخلق وكشف الحجاب . . . هنالك تتصل الأنوار ببصائر الموحدين . وينهض يعسوب المؤمنين (العقل) . ويتعالى ضياؤه فى الآفاق الكشف معلوم الدين . ويحلّ العقاب والخِزْى بأهْل التبديل والبِدَع . المتوجّهين بالزور والبهتان إلى عبادة العجْل (الضدّ) ولأتباعه بالتَّبَع . . . فهم مُخَلَّدون بما اجترحوه . . . حينئذ انتظروا صيحة البوار . وظهور كنز الجدار [استعارة من الآية ٨٢ من سورة الكهف] . إذا طلعت شمس الشموس . وتفتّحت أبواب السماء لظهور المولى القدّوس . فتذهل عند ذلك المراضعُ عن المرضَعات . ويحتدم لهيب الصدور على ما فَرَط من الطاعات . وعنت الوجوه لأمر إله الأرض والسموات . فأين يُتاهُ بكم وقد أسرجت للحقّ الضمَّرُ العتاق . وتقضّى المضمار وحان السباق . فحينئذ انتظروا صيحة الفنا يا كدَرَ الأمم . ويا بقيةَ عَبَدَةِ العجل والصنم . . . لقد رفعت عنكم الأقلام . وتمّ التمام . وانقطع الكلام . وبلَغَتْ ما أودعَتْهُ النُّذُرُ الكرام » .

التوحيد

هذا المذهب التوحيدى قائمٌ على الإسلام ، يفسر آيات « التنزيل » تفسيرًا باطنيًّا خاصًّا ، يخرجه عن باطنِ « التأويل » . ويجعله أحد المذاهب المتَّهمة بالغلوّ . فإنهُ يخالف أهل التنزيل ، فى أنه ينظر نظرة خاصة فى ما تنطوى عليه الألفاظ من معانى ودلالات روحانية . ويخالف أهل التأويل ، ويسميهم أهل الباطن ، فى تفهُّم رموزها الخفية . ويخصّ بهذه التسمية الإسماعيلية ، أقربَ المذاهب إليه . وقد اشتهر فى عصرنا الحاضر زعيمه الأكبر آغا خان .

فى ذلك تقول الرسالة ٣٨ : « أهل الظاهر وأهل الباطن مؤمنون . وأهل قائم الزمان موحّدون » . وتفسر الرسالة ٩ هذا بقولها : « معاشرَ الموحّدين ! إن الإسلام باب الإيمان . والإيمان باب التوحيد » .

وتوضح الرسالة ٥٨ هذا الفرق بقولها : « ولما نظرنا إلى عقائد جميع من أشار إلى التوحيد ، وجدناهم طبقات ثلاثًا : — طبقةٌ تطلبه بالرؤية . وطبقة تطلبه بالقول والمنطق والكلام اللفظى ، وطبقة توحّده بالعقل . . . فالطبقة الأولى أهل التنزيل . والثانية أهل التأويل .والثالثة أهل التوحيد ، يوحّدونه بقلوبهم ، وينزهونه بأفكارهم الصحيحة وعقولهم » .

وتعرض الرسالة ٧١ لنظرية المعتزلة وغيرهم فى خلق القرآن بقولها : « إن القرآن كلام الله . منزل . غير مخلوق ولا مجعول » . . . .

وفلسفة التوحيد هذه تلتقى فى بعض الأمور مع المعتزلة وتخالفها ، كما رأينا ، فى بعضها الآخر . فإنها تنفى عن الله الصفات والأسماء والحالات والجهات والقِدَم والتشبيه . بمعنى أن الله هو الجمال ، لا الجميل . والقدرة ، لا القدير . والحياة ، لا الحىّ . والعلم ، لا العليم . إلخ . فإن الجميل لا يستغنى عن الجمال . والقادر تلزم له القدرة . والحىّ تلزمه الحياة . والعالم

بالشيء لا غنى له عنه. كأنما هذه جميعًا أمور أو أجزاء منفصلة عنه متبعة له . أو كأنها غير ذاته .

تقصد بهذا وحدانيةَ الله . لا تركيب . ولا تأليف . ولا انقسام . ولا أجزاء . فحيث تذكر الصفات أو الأسماء أو الحالات ، فى الأديان ، تفسرّها بأنها معانى ، تقريبًا لها إلى الأذهان . وأما عبارات التعظيم والتجسيم والتشبيه وما إليها من صور مألوفة لمخيلة البشر ، فهى مجازية رمزيّة . وكالمعتزلة تقول ما لا يدرك لا يُسمى ، وإنّ الأسماء وسيلة لمحاولة فهم إرادته ، لا لمعرفة جوهره . وهكذا جعلت للألفاظ مغزى خفيًّا باطنيًّا ينفى عنها ظاهرَ مؤدّاها . إجلالاً للبارى « وإقرارًا بالعجز عن إدراك كنْهِه » .

ولنقتبس من كتبها ما يعيننا على الإلمام الدقيق بهذه الفلسفة . فالرسالة ١٣ تقول :

« إن المولى سبحانه ، لا قديم ولا أزل . لأن القديم والأزل مخلوقان . وهو خالقهما ... حقيقة لاهوته لا تُدْرَك بالأوهام والحواس . ولا تعرف بالرأى القياس ... ليس له مكان معروف ، فيكون محصوراً فيه ، وتخلو بقية الأمكنة منه . ولا يخلو منه مكان فيكون عاجز القدرة . ولا هو بأول ، فيحتاج إلى آخر . ولا بآخر فيكون له أول . ولا بظاهر ، فيحتاج إلى باطن . ولا بباطن فيكون مستتراً بظاهر .

« لا أقول بأنّ له نفسًا ولا روحًا ، فيكون يشبه المخلوقين ، ويدخل تحت الزيادة والنقصان . ولا أقول إنّ له شخصًا . ولا جسمًا . ولا شبحًا . ولا صورة . ولا جوهرًا . ولا عَرَضًا . لأنّ كل اسم منها لا بُدّ له ، ضرورةً ، من شبْهِ ستة حدود — وهى فوق وتحت ويمين وشمال وخلْف وقدّام — وكلّ ما يقع عليه اسم الشبْه يحتاج إلى شبْهِه . . والبارى العلىُّ سبحانه يُجَلّ عن الأعداد . . .

« ولا أقول إنه شيء ، فيقع به الهلاك . ولا أقول إنه لا شيء ، فيكون معدومًا مفقودًا . ولا هو على شيء ، فيكون محمولاً عليه . ولا هو فى شيء ،

فيكون محاطًا به . ولا متعلّق بشيء ، فيكون قد التجأ إليه .

« ولا هو قائم . ولا جالس . ولا نائم . ولا ساهر . ولا له شبهٌ . ولا ذاهب . ولا جاى . ولا لطيف . ولا كثيف . ولا قوىّ . ولا ضعيف . . .

« منزّه عن الصفات . والأجناس . واللغات . والأشياء كلها .

« ... من نوره أبدع الأشياء ... وإلى عظمته وسلطانه يعود كلّ شيء . حقيقة لاهوتية لا تُدرَك إلا صورةً وهمية . لا حقيقية مرئية . »

هذا التوحيد يختلف عن التثليث فى أنّ فكرة الأقانيم الثلاثة نشأت للتوفيق بين تأليه المسيح عليه السلام ، والإيمان بالإله الواحد بينما تعتبر فلسفة التوحيد أنّ تجلى الخالق نفسه ، بالشكل البشرى ، أجدر بوحدته تعالى ، وأولى بالاعتقاد بوحدانيته . .

بمثل هذا الاعتقاد كانت « كلية هارفرد » فى أواسط القرن الثامن عشر ، وهى تمثّل أرقى أفكار ذلك العصر ، وبضعة عشر من رجال الإكليروس فى « نيو إنكلاند » بأمريكا ، جميعًا يبشرون بالتوحيد .

ويمكننا القول ، بدون تجاوز ، إذن ، إنّ صلة المسيح بالله ، فى ظهوره البشرى ، لا تفسَّر إلاّ على أساس الاعتقاد بالتجسد . فإن التجسُّد والتثليث هما العقيدتان الملتئمتان، اللتان لا انفكاك بينهما ، فى الإيمان المسيحى . يختلف عنهما التوحيد ، بالاعتقاد أنّ « العقل الكلى » تقمّص شخص المسيح . أى تجسد به .

التجلى :

أما التجلى فيقول فيه المذهب مناقشاً : إنه سبحانه أظهر لنا « حجابه » ومقامه رحمةً منه ورأفةً [الرسالة ١٣] « فإن قال قائل : كيف يجوز أن نسمع كلام البارى سبحانه من بشر ، أو نرى حقيقته فى الصّور ؟ قلنا : أنتم تعتقدون أنّ الله عزّ وجلّ خاطب موسى من شجرة . . ومن جبل . . .

وسمّيتموه كليم الله . . فإن كانت الشجرة "حجابة" ، فإن من يعقل ويفهم أحق أن يكون حجاب الله مما لا يعقل ولا يفهم . وكيف يجوز للبارى سبحانه أن "يحتجب" فى شجرة يخاطب كليمه منها ، ثم تُحرق الشجرة ويتلاشى حجابه ؟ »

تقول الرسالة ٣٦ إنه « تقرّب إلينا بنا . وأنس عقولنا بصورنا . وظهر لنا بجميع أفعالنا . لتقبله أفهامُنا . فلا نقول إن هذه الصورة المرئية هى هو ، فنجعله محصوراً محدوداً . بل نقول هو هى ، استتاراً وتقرُّباً وتأنيساً ، بغير حدّ . ولا شبْه ، ولا مِثْل . أو كما نطق القرآن [الآية ٣٩ سورة النور] « كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً ، حتى إذا جاءه لم يجدْهُ شيئاً ، ووجد اللهَ عندَه . . . » كمثل الناظر فى جوهر المرآة . فهو يرى نظير صورته بغير لمْس ولا إدراك كيفية ولا تحديد ماهية » . . .

« إن الله لو كان موجوداً على صورة مخالفة لبريّته . أو ظهر لهم بمعنى يليق لعظمة ألوهيته ، لم يشك فيه أحد من البرية ، وارتفع التفاوت والتفاضُل ، وسقط الثواب والعقاب » [الرسالة ٦٩] . ولذلك « ظهر فى حدّ الطفولة . ثم الكمال . ثم اعتلّ فى ظاهر الأمر . لئلا يكون عاجزاً عن ذلك (عن الاعتلال) . فإنّ العجز (إرادة العجز والقدرة عليه) من القادر قدرة » [الرسالة ٦٧] .

« كذلك مولانا جل ذكره ، بظاهر ناسوته عرّفنا بلاهوته . ومن حيثُ نحنُ ومن صُوَرنا خاطبَنا . وإلا فما عرفناه ولا أدركناه . . . وسلطان لاهوته لا يُدرَك ولا يُعرَف » [الرسالة ٩] . واستطراداً تقول الرسالة : « إن الروح لا تدرَك إلا بالجسم » . فما أقربَ هذا القول إلى نظرية « باروخ سْبينوزا » ومؤدّاها : أن الوجود يتألف من الطاقة العقلية والطاقة المادية . أو المادة والوعْى . وامتدادهما بالجسد والروح فى الإنسان إنما هو حالة طارئة من حالات الله فى الوجود .

ثم تقول : « فأىّ عدل يقتضى أن يكون فوق سبع سموات . على كرسىّ . فوق السماء السابعة وقد كلّفنا ، مع هذا ، عبادتَه ومعرفتَه ؟ . . . والمرء ليس فى وسعه أن يعرف ما خلفْ الجدار القريب إنْ لم يكشف عنه . . . فإنّ ظهور الله نفس العدل . . . فلما صحّ أن ابن آدم أفضل المخلوقات ، وجب أن يحتجب البارى فى أشرف المخلوقات » [الرسالة ٦٧] .

وكذلك الرسالة ٧٠ تردّد « أن فيثاغورُس كان يعتقد أن البارى موجودٌ نورٌ محْض . وأنه لابس جسداً ما ، يستتر به لئلا يراه إلا من استاهَل ذلك واستحقه وقام فى عبادته . . . وهكذا يقول أفلاطون معلم أرسطوطاليس ومن اتّبَعَهُ » .

« إن البارى سبحانه لاتخلو الدار من وجوده طرفة عين . ولو خلَت الأرض منه لزالت الحُجَّة عن الخلق فى تلك اللحظة » [الرسالة ٧٥] .

« ظهر بالشكل البشرىّ لأنّ حكمته قضت بذلك إشفاقًا على جهل العالم المتمسك بالمحسوسات . وامتحانًا لهم . لتكمل عليهم الحجَّة [الرسالة ٤٤] .

فظهوره « إنسيَّة لعقولنا . وشفقة منه علينا » [الرسالة ٢٤] .

هذا الظهور — كما تقول الرسالة ٤١ — غير حِسّىّ . فإنه حين كان يركب للخروج فى النهار « كان للأتان ظلّ ، ولا ظلّ للراكب . . . لاهوته المحجوب عنا . وناسوته المُظْهَر لنا » [الرسالة ١٩] .

نكتفى بإيراد هذه النصوص ، وإن كانت الرسائل حافلةً بكثير منها . وما أوردناها إلا وفاءً بأمانة النقل . ولا اختلاف فيها عما ألِفه الناس فى كثير من العقائد السارية ، إلا جدة إعلانها وفجاءَة ظهورها .

أسفار الخليقة

ليست فلسفة العقيدة ، المستندَ الروحيَّ الوحيد لأتباع هذا المذهب. فهنالك مستند آخر قائم على أسفار ، بعضها منسوبٌ إلى زمن غارق في مجاهل التاريخ ، اصطلح العرب على تسميته زمن الفِطَحْل ؛ لم يكن قد خُلِق فيه البشر بعد .

وبعضها يشبه الأسفار « الأبوكريفيَّة » من التوراة ، أو التابعة لها . بل يأخذ الكثير عنها مما يصعب التثبتُ منه تاريخيًّا . لأنه خارجَ النطاق التاريخي الجليّ ، ومجال نقده العلميّ .

وبعضها يؤلّف مع سائر الأديان الساميَّة قاسمًا مشتركًا فيما يرويه عن الأنبياء ، وسِيَرهم ، وأدوارهم في تطوير مجتمعهم روحيًّا . ولكنه يضيف إلى الأدوار الزمنية المعروفة أدوارًا لاهوتية ، بازدواج رمزيّ يقصد منه إلى التوفيق بين ظاهرها وبين باطنية التعاليم .

فإنها تعتبر التاريخ الزمنيّ شيئًا ، وعمل الرسالات الروحية شيئًا آخر ، لم تدوّن حقيقة مفعوله في التاريخ المكتوب . الذي قلَّما ألمَّ بالعوامل الخفية التي تفعل في تغيير مجرى الإنسانية أكثر من الحوادث الظاهرة التي يرويها المؤرّخون .

هذا التبطين ، والازدواج ، و « الإمداد » يستغرق توضيحها وشرحها فصولا طويلة نكتفي باقتباس شذرات من الرسائل تَدُلّ عليها . وحسْبُ القارئ أنّا نشاركه في خفاءِ الكثير منها علينا .

تصف الرسالة ١٣ كيف كان الوجود عند بداية « العقل الكليّ » بعبارات نوجزها جهدَنا بما يلي :

تقول إنه في ذلك الحين لم يكن سماءٌ . ولا أرض. ولا ملائكة. ولا لوح ، ولا قلم . . . ولا شمس . ولا قمر . ولا كواكب . ولا جنة للناظرين مَرْئية . ولا جنة بالعهود مَرْضية . ولا نار . ولا أرواح . « ولم يكن عند

ظهوره (ظهور العقل) أيام . ولا أنام . ولا شهور ولا أعوام . ولا ناقص ولا تمام . ولا حواس ولا أوهام . ولا زمان . ولا مكان . ولادهر ولا أوان . ولا ليل ولا نهار . ولا غامر ولا عُمَّار .ولا بحار ولا قفار .ولا فلك دوّار . غير مولانا البار العلىّ الجبار . . . . سبحانه لا يدخل تحت الأسماء والصفات واللغات . . . لا قديم ولا أزل . لأن القديم والأزل مخلوقان جميعاً .. والبار خالقهما » .

بعد وجود العقل فى الخليقة ، وقد أفردنا له فصلاً سابقاً ،تقول الرسالة ١٢ إنّ آدم ثلاثة . هم « آدم الصفاء الكلىّ » . و « آدم العاصى الجزئىّ » . و « آدم الناسى الجرمانى » .

١ — « آدم الصفا » ،أى صفىّ الله،خلقه الله « بيده » أى أبدعه من النور المحض . و « نفخ » فيه من روحه . ذلك بعد ٣٤٣ مليون سنة من بدء العالم. . و « حاشا الله أن يخلق صفيه من التراب» . . . ظهر فى عالم يقال لهم الجنّ . كانوا يعبدون العدم . وخدم فى دعوة التوحيد فى الأعصار : قبل الدور الذى لُقِّب فيه بآدم . وكان اسمه شطنيل . . . جَعَلَهُ الله إماماً وأمر الملائكة ، أى الدعاة ، أن يسجدوا له ، أى أن يطيعوه . فأطاعوه ، إلا « حارث» . فإنه أبَى واستكبر . [إشارة إلى الآيات ١٠ و ١١ و ١٢ من سورة الأعراف : « ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . فسجدوا . إلا إبليس . . . قال أنا خيرٌ منه . خلقتنى من نار وخلقتَه من طين »] . . .

« إن البارى خلقه كصورته ، أى فرض طاعته على العالمين كطاعته . . . » والخروج من الجنة هو الخروج من الدعوة . وقيل أبو البشر . وهم الموحّدون . قبلوا منه التوحيد فصار أباهم فى الدين . . .

٢ — وتمضى الرسالة فتقول : « وأما "آدم العاصى" ، ويسمىّ الجزئىّ ، الثانى الذى نطق القرآن به أنه عصى ربّه ، فهو « أخنوخ » ، حُجة آدم الصفا . و « أخوه » الذى انتقل إلى هجر للخدمة فى دعوة أخيه . . . سُمِّىَ العاصى لعصيانه بإغواء الشيطان . ولقبُه « حوّا » . . .

٣ ـ . . . « آدم الناسى » هو « شرخ » ، ثانى حجة آدم الصفا . اسمه الآخر « شيت » . لقبه الناسى ، إشارةً إلى الآية [١١٥سورة طه] « . . . فنسِى ولم نجدْ لَهُ عزْمًا . . . »

قصة الجنة :

اختارهما شطنيل (أى أخنوخ وشرخ) . وجعلهما مقامه فى الدعوة . وكلٌ منهما بلقب آدم . لأنه جعلهما أبوين للموحدين.وأسكنهما « الجنة » . « فصار أخنوخ بمنزلة الذكر . وشيت بمنزلة الأنثى . وأوصاهما بأن لا يعبدا غير مولانا البار » . والبار هو اسم الله الذى تجلى به فى شكل الناسوت البشرى فى وقت شطنيل . وقال لأخنوخ : اسكنْ أنت وشرخ الجنة (أى دعوة التوحيد) . وكُلا منها (أى نالا المنزلة الرفيعة) . ولا تقربا هذه الشجرة (أى لاتدّعيا منزلة شطنيل) فتكونا من الناكثين » . [إشارة إلى الآية ١٩ سورة الأعراف : « يا آدم ، اسكن أنت وزوجُك الجنة . فكُلا من حيث شئتما، ولا تقرّبا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين »]

« فأزالهما الشيطان عنها (أى عن الوصيّة) . وأخرجهما (من المنزلة) . والشيطان غير إبليس . كان مأذونًا من قِبَل إبليس نافق معه على شطنيل . و "الحية" كان داعيًا من قِبَل أخنوخ واسمه "آنيل" . و "الطاووس" كان مأذونًا فى الدعوة ، اسمه "طايوخ" . »

وتجرى القصة : إنّ الهبّال(الشيطان) لم يزل يتردّد إلى آنيل الداعى (أى الحية) والطايوخ (الطاووس) ويقول لهما :

ـ عندى نصيحة لسيدنا « أخنوخ » وأخيه « شرخ » (وهما آدم العاصى وآدم الناسى) لكما فيها صلاح .

حتى أوصلاه إليهما . فلما دخل إلى أخنوخ ، خرّ له ساجدًا . فقال له أخنوخ : « عساك رجعت عن كفْرِك » ـ فقال له الهبال : « لاوحقِّك ، وحقّ البار ، ما جئت إلا ناصحًا لكما ، غيرةً منى عليكما بما ظلمكما

شطنيل . . . فقد سمعت مولانا البارسبحانه يقول : « إن الإمامة لأخنوخ . وشرخ خليفته فى الدعوة » . فاستحلفه أخنوخ . فحلف له أنه صادقٌ فى مقاله . فحمله شَرَهُ النفس . . . ونسى ما أُخِذ عليه من العهد .

« فأكلا من الشجرة (مقاومتهما لآدم الصفا) . وادّعى أخنوخ منزلةً ليست له . . . فبدت لهما سوءاتهما . . . فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة (أى يستّران ظواهرهما) . فلم ينفعهما ذلك . ونُودِىَ بين المستجيبين : « أخنوخ عصى آدم » . . . وأسْقِطا من المنزلة التى كانا فيها . فأقاما سنين بكثرة يبكيان على ما فعلا . ويسألان الإمام العفوَ عنهما [إشارة إلى الآية ٢٣ سورة الأعراف : « قالا ربَّنا ظلمْنا أنفسَنا . وإنْ لم تغْفِر لنا وترحمْنا لَنكونَنَّ من الخاسرين »] . فرحمهما شطنيل ، وسأل البار بأن يعفو عنهما . فعفا . . . وردّهما إلى المنزلة التى كانا فيها . وقرَّبهما إليه » .

الأدوار :

هكذا تمضى الرسائل فى تفسير ما ذكر فى الآيات والتوراة تفسيرًا باطنيًّا فتقول مثلاً الرسالة ٣٦ : « إن آدم المشار إليه قد كان قبلَه أعصار . وهم الطمّ . والرمّ . والحن . والجنّ والبنّ » . وتفسّر هذه الرموز . فتقول إنها شرائع ما قبل زمن التوحيد . . . فالبِنُّ مثلاً « قوم تخلّصوا من الشبهات . وعرفوا المعبود فعبدوه . . . » . . . « والجن قد انعكسوا وحادوا عن المولى » . . . إلخ .

وإنّ « الأدوار » أو العصور هى الشرائع المتعاقبة من وقت آدم إلى وقت حمزة . وهى :

١ – دور آدم : استمرّ ألف ومايتى سنة . وكان قد ظهر بعد التكوين بِ ٣٤٣ مليون سنة . وفى هذا الدور ظهر شطنيل كما ذكرنا .

٢ – دور نوح : ابن لامخ ، سبط متوشالح . يفسّر الطوفان بأنه شريعته التى غمرت الأرض . والفلك دعوته المنجية . استمر دورُه ألفًا وخمسماية سنة .

فى الأساطير اليونانية مثل قصة الطوفان . تروى أنّ « دوكاليون » ابن « بروميثيوس » بنى فُلْكا استوى به وبزوجته « پِرْها » على جبل « بَرْناسُّس » بعدما عزم « زفس » ، الإله ، على هلاك البشر بالطوفان .

وفى « المهابهاراتا » الهنديّة « نوح » آخر . اسمه « مانو » . أنذِر ببناء فلْك . بعدما أنقِذ به أصْبَحَ أبًا لجميع البشر . وفى الأساطير الصّينية كذلك قصص للطوفان مرويّة .

٣ — دور إبراهيم ، الذى عاش فى أور الكلدان بين عبدة الأصنام فى حكم « نمرود » الذى ألقاه فى النار ، فكانت « بردًا وسلامًا » [كما تقول الآية ٦٩ من السورة ٢١] . وصحف إبراهيم مذكورة فى القرآن الكريم . فى سنة١٩٢٧ نَشَرَ ج. ه . بوكس ترجمة كتاب« يونانى » زعم أنه صحف إبراهيم .

تقول هذه الأسفار إن إسمعيل هو « ابنه الوحيد» الذى أراد تقديمه ذبيحةً للرب . فإنه ولد لما كان عمر إبراهيم ٨٦ سنة [سفر التكوين . الإصحاح ١٦ العدد ١٦] . أما إسحق فإنه وُلِد بعده بِ ١٤ سنة أى لما كان عمر إبرهيم ١٠٠ سنة [التكوين ٢١ العدد ٥] . ومع هذا يقول سفر التكوين [الإصحاح ٢٢ العدد ٢] إنّ إسحق — الابن الثانى — كان هو الضحية الّتى أراد تقديمها .

٤ — دور موسى : كان فى مصر ٤٨٠ سنة بعد يوسف الصدّيق . وكان خروجه بقومه من مصر فى عهد « تحوتمس » الأوّل سنة ١٥٤٠ ق.م. كتب التوراة باللغة الآرامية ثم ترجمت إلى العبرانية [٥ كتب هى : التكوين . الخروج . اللاويّين . الأعداد . أخبار الأيام] . . وكان دوره أطول الأدوار (١٧٠٠ سنة) . عاش ١٢٠ سنة ؛ ٣٨٠٠ سنة بعد آدم .

٥ — دور « عيسى » ابن يوسف ومريم . ظهر ٥٥٠٠ سنة بعد آدم . صُلِب سنةَ ٥٥٣٤ شمسية (٥٧٦٣ قمرية) منذ عهد آدم، و٢٨٠ سنة

بعدالإسكندر . ولم يُعرَف إلا فى السنوات الثلاث الأخيرة من حياته ، وقد عاش ٣٣ سنة و ٣ أشهر . وطال دوره ٦٢٠ سنة .

وتقول الأسفار إن « المسيح » عليه السلام هو « يسوع » ومعناه المخلص . وتطلق عليه رسائل « الحكمة » أسماء عديدة . منها : « قائم الحق » . « إمام الزمان » . « ملكوت السموات » ... وسنفرد فصلاً خاصاً عنه يوضح نظرية الحكمة .

٦ ــ دور محمد : كما هو معروف . تذكر الأسفار أن رفيقه وممدّه كان سلمان ، ابن ملك برهمىّ ، ثقفه راهبٌ أوصاه قبل موته أن يسعى إلى نبىّ اسمه محمد ، يظهر فى مكة . وأنّ محمداً لما رآه لأوّل وهلة قال: السلام على من آمن بى منذ ٤٠٠ سنة قبل أن أولَد . وكان سلمان الرفيق الأمين للرسول الأمين .

٧ ــ الدور السابع :سنأتى على ذكره فيما بعد . به تنتهى الأدوار السبعة . والرقم ٧ له معنى رمزى . فالأدوار ٧ .والسماوات ٧ . والمقامات ٧ . والأيمة ٧، ولنأتِ على ذكرهم فيما يلى ، توفيةً للموضوع .

الرقم ٧

لهذا الرقم دلالة رمزية لمعنى خفيّ باطنيّ . فالأدوار ، كما رأينا ، سبعة . والسماوات سبعة . والمقامات سبعة . والأئمة سبعة . و « علل العالم الروحاني ٧ » (وهم الحدود الخمسة والناطق والأساس) .والمدبّرات ٧ (زحل . مشترى . مريخ . شمس . زُهَرة . عطارد . قمر) . . والأيام ٧ . والنطقاء ٧ . والأوصياء ٧ . والشرائع الظاهرة ٧ . والشرائع الباطنة ٧ . والدعائم الظاهرة ٧ . والدعائم الباطنة ٧ . والفرائض التوحيدية ٧ (أما تفريع هذه في « ميثاق النساء » إلى ١٠ فهو زيادة إيضاح . إذ أنّ معرفة الله وهى أولى فرائض الميثاق ، متفرعة عن الفريضة ٥ التي هي التوحيد . وهكذا معرفة القائم ومعرفة الحدود متفرّعتان من حفظ الإخوان) أضِفْ إلى ذلك أنّ الحاكم أنار الشموع ٧ سنوات . ولبس الصوف ٧ سنوات . وألزم النساء منازلهن ٧ سنوات . . .إلخ . فقد ذُكِر : « كل شيء إذا بلغ ٧ انتهى ووجب تغييره وحدوث غيره » . . .

٧ سماوات :

هذا تشبيه رمزى ، لأمكنة وأشخاص وحالات ؛ حفلت به الأديان والأشعار في الشرق والغرب . واستعاره الأدب الباطنيّ لمعانى ومنازل روحية . أمّا في علم الباطن فإنّ « . . . سبْع سماوات طباقًا . . . » [في الآية ٣ سورة المُلْك] هم: إسمعيل . محمد . أحمد. عبدالله . محمد . الحسين.عبدالله . ابنًا عن أب خلفاء بالتسلسل .

هؤلاء هم « أئمةُ السِّتْر » السبعة . جدّهم الأعلى الحسين بن عليّ ابن أبي طالب . سُمُّوا سماوات . وهم المستودَعون لسرّ الحقيقة . كان آخرهم عبد الله في القرن الثالث للهجرة . وقد استتروا تحذُّرًا من أعدائهم الحكام العبّاسيين .

فى وقت « السماء الثالثة » ، أحمد ، ظهر « مقام » أبى زكريا بدون ملك دنيوىّ . وظهر معه «العقل» فى شخص قارون الذى كان عجميًّا . [الرسالة ٣٦] .

وفى وقت « السماء الرابعة » ، عبد الله ، ظهر « مقام » عليًّا . وعبدالله هذا هو أوّل الأئمة الذين سابعهم « المعزّ » ، وثامنهم العزيز . وتاسعهم « الحاكم » آخر الأئمة وخاتمهم .

وفى وقت « السماء الخامسة » محمد ، ظهر « مقام » المعلّ بديار تدمر .

أما « السماء السابعة » عبد الله فقد سُمّى أيضًا أحمد والمهدى . ابنه سعيد المهدى . فهو أبو سعيد المهدى . وسعيد المهدى هو الملقّب « عبيدالله » . .

٧ مقامات :

المقامات ، عند الدروز والإسماعيلية ، هى الظهورات أوالتجلّيات . وهى فى نفس الوقت إمامات .

١ — العلىّ .

٢ — البارّ .

٣ — أبو زكريا : ظهر فى وقت السماء الثالثة . فى آخر عهد البار سنة ٢٢٠ ﻫ .

٤ — عليًّا : ظهر فى وقت السماء الرابعة .

٥ — المعلّ : ظهر فى وقت السماء الخامسة . فى وقت الإمام المستتر عبدالله (السماء السابعة) .

هؤلاء الثلاثة الأخيرون ، معروفون أبًا وابنًا وحفيدًا ، من مقامات الستر .

٦ — القائم : كان طفلا استودعه ، مع سرّ إمامته ، أبوه المعلّ برعاية سعيد المهدى الملقب « عبيدالله » (ابن السماء السابعة) سنة ٢٨٠ ﻫ . وكان سعيد فى العشرين من عمره . هرب بالقائم من وجه العباسيين إلى مصر سنة ٢٨٩ ﻫ . فإلى شمالى أفريقيا غربًا سنة ٣٠٨ ﻫ . مما سيأتى ذكره فى فصل الفاطميين . فهو مؤسس دولة الخلافة الفاطمية فى مصر . وهى امتداد للدولة

« العبيدية » التى أنشأها « عبيد الله المهدى » ، وسمّاها المؤرّخون باسمه ، فى المغرب .

تلاه المنصور الذى حكم من ٣٣٤ إلى ٣٤١ هـ . ثم المعزّ من ٣٤١ إلى ٣٦٥ هـ . وهما ، مع القائم ، يُعتَبَرون ، فى المذهب ، روحيًّا ، ذاتًا واحدة .

٧ — العزيز : من سنة ٣٦٥ إلى ٣٨٦ هـ . وأخيرًا الحاكم (المنصور) الذى سنفرد له فصلاً خاصًّا . وهما ، فى حساب المذهب ، واحد . كقول الإنجيل : « أنا والآب واحد » .

٧ إمامات :

فى الدور السادس المار ذكره ظهر الأئمة الظاهرون والمستترون . المستترون هم « السماوات » ابتداءً بإسمعيل وانتهاء بعبد الله ، سلالة واحدة خلافية من الأب إلى الابن . ومثلهم الأئمة الظاهرون . لمدة ١٨٠ سنة . وهم :

١ — على بن أبى طالب . الإمام « المرتضَى » .

٢ — الحسن « المـُجْتَبَى » . ولد سنة ٢ هـ . فلما قُتِل والده الإمام علىّ بايعه أربعون ألفًا من أهل الكوفة سنة ٤٠ هـ . ثم بعد سبعة أشهر تخلى لمعاوية . ومات بالسم سنة ٥٠ هـ .

٣ — الحسين (شقيق الحسن من فاطمة الزهراء) شهيد كربلاء . وهو بحساب الإسماعيلية ، أبو الأئمة السبعة الباقين . ولكن أبو الاثنيعشر إمامًا ، بحساب الموسوية « الاثنيعشرية » ، أتباع موسى « الكاظم » : أخى إسمعيل الإمام السابع ، باعتبار أنّ الثامن هو علىّ « الرضى » ، والتاسع محمد « التقى » ، والعاشر على « النقىّ » ، والحادى عشر حسن « الزكىّ » ، والثانى عشر محمد « الحجة » (بالتسلسل) وهو « الغائب المنتظر » أى المهدى الذى سيعود . وكانت مدّتهم جميعًا ٢٥٠ سنة .

٤ — على . ابن الحسين الأصغر . فإن الابن الأكبر قُتِل فى كربلاء . لُقِّبَ علىّ « زين العابدين » . مات بالمدينة سنة ٦٤ هـ . عن ٥٨ عامًا .

ابنه زيد الذى تنسب إليه الزيدّية باليمن .

٥ ــ محمد الباقر . ابن على . مات بالمدينة سنة ١١٧ هـ . عن ٧٣ عامًا . إليه تُنْسَب « الباقرية » .

٦ ــ جعفر الصادق . ابن الباقر . مات بالمدينة سنة ١٤٨ هـ . إليه تُنْسَب « الجعفرية » .

٧ ــ إسماعيل . ابن جعفر . آخر أئمة الدور السادس . إليه تنسَب «الإسماعيلية » أو « السبعية » (نسبة إلى هؤلاء الأئمة السبعة) ، وهم القائلون بسبعة أئمة مستورين وسبعة ظاهرين . من هنا نشأت « الباطنية » والقول بأن لكل قول ظاهر وباطن . والموحدون ــ الدروز ــ يسمّون الإسماعيليين الإخوان المقصرين بعدما انفصلوا عنهم .

هكذا أخذت الفرَق الإسلامية تتألّف وتفرّق . منها الغلاة الذين اعتقدوا الألوهية فى بعض أئمتهم . ومن الغلاة « الحمراوية » و « النصيرية » و « الشمطية » و « الكيسانية » إلخ .

الفاطميّون (الباطنيون)

أقام « المُعلِّ » ، كما مرَّ بنا ، قُبَيْل غيبته : سعيداً المهدى وصيًّا على ابنه « القائم » . وسعيد هذا هو الذى سمى فى المغرب عبيد الله « المهدى » ، وإليه نُسبت دولة العبيديين . وُلِد بمدينة« سلميّة » بالشام سنة ٢٦٠ هـ ابنًا لإمام الستر السابع . فلما بلغ العشرين من العمر تسلَّم « القائم » وديعةً من والده المعلّ . وانتقل به إلى المغرب ، زاعمًا أنه ابنه .

هناك استطاع أن ينشر الدعوة فى مأمن من الخلفاء العباسيين . وذلك بعد مغامرات كثيرة . ففى مصر ، التى وصل إليها فى سنة ٢٨٩ هـ ؛ كان تاجرًا . وفى سَلْجَماسة سنة ٢٩٦ هـ تسمى عبيد الله ولُقِّب بأمير المؤمنين . وكثر أنصاره وأعوانه ومريدوه .

تحذُّرًا من العباسيين ، وتحصُّناً من عمالهم فى تلك الديار ، انتقل سنة ٢٩٧ هـ . إلى رَقّادة فى القيروان ، وهى إلى الجنوب الشرقى من تونس ، حيث بنى مدينة سمّاها « المهدية » . واستقرّ بها . وهى شبه جزيرة ، حصّنها بسور وأبواب من الحديد ، سنة ٣٠٣ هـ .

منها اتسع ملكه حتى شمل بلاد المغرب وصقلية ، بعدما تغلب على دولة بنى الأغلب ، عمال بنى العباس على شمالى أفريقيا ، سنة ٣٠٨ هـ . فاستتبّ له الحكم من الأطلسىّ حتى حدود مصر . وأعلن أنّ القائم ابنُه . وكناه « أبا القاسم » . وجعله ولىّ عهده .

وكان « القائم » يقود الجيوش . سيّره بها المهدى إلى مصر مرتين : سنة ٣٠١ هـ ، حيث استولى على الإسكندرية والفيوم . ورجع سنة ٣٠٢ . وثانيةً سنة ٣٠٦ إذ استولى على دمياط والرشيد ، وعاد إلى المهدية .

وكان له فى خلال ذلك أشياع فى بغداد ، والشام ، ومصر ، وخراسان ، يوفد إليهم الرسل يدعون للفاطميين ؛ متخذًا من الانتساب إلى فاطمة الزهراء

ابنة الرسول الحقّ بالخلافة دون بنى العباس . وطالت خلافته ٢٥ سنة ونيّف . وله من البنين ستة ومن البنات ثمان . وعاش ٦٤ سنة .

القائم :

انتقلت الخلافة إلى القائم . فكانت مدّتها ١٢ سنة و٧ أشهر وعاش القائم ٥٤ سنة و ٧ أشهر ، بإمامة ظاهرة ، وهى السلطة . وإمامة باطنة فى التأويل مجازيّة .

من أهمّ الأحداث فى خلافته الحرب بينه وبين مخلّد أحد ملوك المغرب وهو من الأباضيّة . فقد كان انتصار القائم بعدد قليل من أتباعه على مخلّد وجيشه الجرّار من بواعث انتشار دعوته وإقبال الأقوام على طاعته .

وكان القرامطة ، فى شرقى الجزيرة العربية ، من أنصار القائم ، وأشدّ الجماعات تحمساً له . وكانوا قد ظهروا فى المشرق فى عهده . يأتمرون بأمره ، على بُعد الشقّة . حتى إنهم لم يقبلوا أن يعيدوا « الحجر الأسود » إلى مكة لقاءَ خمسين ألف دينار عرضت عليهم . ولكن أعادوه ، دون لقاء ، لما أمرهم بإعادته القائم .

يُروَى عن هؤلاء القرامطة الذين ظهر مذهبهم فى نواحى هجر فى خلافة المعتضد سنة ٢٨١ هـ . أنهم أغاروا على بغداد وقهروا المعتضد . وكانوا يقطعون طريق الحج . وينهبون . حتى امتنع الناس سنة ٣١٢ عن الحج خوفاً منهم . وأغاروا على مكة سنة ٣١٧ وأمعنوا فى الحجيج سلْباً وتقتيلا . ونهبوا الكعبة . ونقلوا الحجر الأسود إلى هجر حيث احتفظوا به ٢٢ سنة ، حتى أمرهم الخليفة الفاطمى بردّه فى يوم النحر . وفسرّوا الفرائض رمزيّاً ، كما فعل بعدهم الموحّدون ، فقالوا : مثلا ، إن الصلاة هى الطاعة للإمام . والصوم الصمت وكتمان العقيدة عن غير أهلها .

المنصور :

هو الخليفة الثالث ، ابن القائم . تولى الخلافة سنة ٣٣٤ هـ . وله من العمر ٣١ سنة . باسمه سميت « المنصورية » التي بناها أبوه في مكان المعركة مع مخلد بن كيداد الزناتي . تلك المعركة التي انتشرت بعدها دعوته واستمر انتشارها في خلافة المنصور الذي امتدت « إمامته » ٤١ سنة و ٥ أشهر . وخلافته ٧ سنوات ساد خلالها الاستقرار في جميع أنحاء مملكته . وكانت « غيبتُه » سنة ٣٤١ هـ .

المعز :

تولى الخلافة بعد أبيه المنصور . اسمه « مَعَدّ » . وكِنْيَتُه « أبو تميم » . وُلِد (الموحدون يقولون « وُجِد ») سنة ٣١٩ هـ . ونشأ في « المهدية » إلى أن بويع بالخلافة وله من العمر ٢٢ سنة . كان عالمًا . له مؤلفات ومصنفات باطنية وتفاسير قرآنية وحكم . من أقواله :

« العقل أعلى ما في الإنسان . . . لو شئتُ رضى الناس لبلغتُه بأيسر الأمور ، وهي التخلية بينهم وبين شهواتهم . ولكن الله عزّ وجلّ قلدنا أمورهم ، وافترض علينا تقويمهم . والأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنْكَر . فنحن نريد نجاتهم من النار ، وهم يسخطون علينا . . . إنّ الحقّ مرٌّ ، إلا عند القليل . . . أريد منكم الصدق والعفاف والتواضع » .

وله قصائد . أشهرها « الملحمة المعزّية » . نعتقد أنه أدخل عليها وعلى كثير من قصائده حشو وتحريف لا يخفيان على من يلاحظ التفاوت بين الجزل والركيك من أبياتها . نعزوهما إلى جهل النقَلة والنساخ .

مدحه بقصائد من عيون الشعر شاعرُ المغرب الأندلسي « ابن هانئ » . أشهرها قصيدته في فتح مصر . فيها تعريض بالعباسيين . فإن المعزّ ، بعد ١٧ سنة من سني خلافته ، سنة ٣٥٨ هـ ، وجّه قائد جيوشه « جوهر » الصِّقلي ،

فاستولى على مصر فى خلال خمسة أشهر . انتزعها من «المطيع لله» العباسى الخليفة ببغداد . وأقيمت الخطبة فيها للمعز . كما أقيمت بعد سنة فى المدينة المنورة .

بنى جوهر القاهرة «المعزية» ، وهو اسمها الأصلى . فدخلها المعز بعد أربع سنوات من فتح مصر . واحتجب فى قصره سنة ، تولى خلالها الحكم ابنه «العزيز بالله» ، المقام الرابع والخليفة الخامس .

العزيز :

«ولد» بالمهدية سنة ٣٤٤ . وسمى «نزار» . وكنيته «أبو المنصور» . ولقبه «العزيز بالله» عند توليه العهد بعد أربع سنوات من قدومه إلى مصر مع أبيه .

بويع بالخلافة سنة ٣٦٥ هـ . وبعد أربع سنوات أطاعه واستجاب لدعوته «عضد الدولة» البويهى بمدينة شيراز من بلاد فارس ؛ وهو الملك الذى اشتهر بالقصائد التى نظمها فى مدحه «المتنبى» وهى سبع قصائد من غرر شعره .

كان القرامطة تحت طاعة العزيز ، وعونا له فى بسط سلطانه على أقطار عديدة مدة خلافته التى استمرت ٢١ سنة ، حتى سنة ٣٨٦ هـ.

المنصور :

تولى الخلافة بعد أبيه العزيز ، وعمره ١١ سنة . كنيته «أبو على» . ولقبه «الحاكم بأمر الله» . وهو سادس الخلفاء الفاطميين وخامس المقامات . اتسع ملكه . ودان لسلطانه معظم الأقطار الإسلامية فى حكم استمر ٢٥ سنة . قهر فى خلاله بنى العباس . وأبطل الخطبة للقادر بالله العباسى . وكانت سيرته من أعجب السير وأغربها منذ الحداثة . اختلف فيها الرواة . منهم من أنصف . ومنهم من جار . وهذا ما يحدونا إلى إفراد فصل خاص عن هذا «الحاكم» نضمنه موضوعيا ما استطعنا استخلاصه من رسائل المذهب

الذى نشأ فى عهده، وروايات المؤرخين الذين أثار حفيظتهم هذا المذهب . والفصل فى رأينا بعيد عن الإحاطة بتلك الحياة الغامضة ، الحافلة بالروائع المحيِّرة والمتناقضات المذهلة . وفيما نرويه نتوخى الصواب والتجرّد التام . فلا نأخذ على عاتقنا إثباتاً أو نقداً أو نفْياً ، شأننا فى سائر فصول هذا الكتاب.

الحاكم

« ظهر » الحاكم فى القاهرة سنة ٣٧٥ هـ ، وحكم ٢٥ سنة من ٣٨٦ إلى ٤١١ هـ ، فى أثنائها لم نجد فى سيرته ، ولا فى أقواله ، انحرافاً عن الإسلام اللهمّ إلاّ ما نُسِب إليه من أطوار ظهر أغرب منها فى بعض الخلفاء الأمويين ، بل نجد فيها أدِلَّةَ اعتزاز بإسلامه ونسبه إلى الرسول ، وإنْ هو انحرف عن السنة باجتهاد باطنىّ فى بعض الأحيان ، ومارس فرائضها على طريقة خاصّة به .

فمما يُروَى عن إمعانه فى نشر الإسلام ، والغلوِّ فيه ، أنَّه ، خلافاً لما أوجبَه الإسلام من سماحة مع أهل الذمة ، يهوداً ونصارى ، كان يُكْرِهُهم على الإسلام ، حتى إنه هدم لهم هياكل وكنائس فى سبيل إكراههم . ثم عاد فأمر ببنائها من أجل مَن أصرَّ منهم على الامتناع عن الإسلام . وعيَّن هوداً اليهودىّ ويونسَ النصرانىّ وزيرَيْن . ثم عاد فقتلهما لأمر ما . كما أنه كسا الكعبة ثم منع كسوتها ، ولكنه وقف الأوقاف ، وبنى المدارس الدينية . وشاد دور العلم ، وأجرى على العلماء والفقهاء والمحدّثين الأرزاق والرواتب . وكان ميّالاً إلى المذهب المالكىّ .

ليس لدينا من أقواله هو ، ما يدلّ على دعوى الألوهية ، ولا نعلم مبلغ صلته الشخصية بالدعوى ، بل كل ما لدينا ، مما هو منسوب إليه فى كتب « الحكمة » ، أو صادر عنه ، أو مُفتَرض اطّلاعه عليه ، لا يعدو الممارسة لشروط الخلافة وأحكام الإسلام ، مهما قال عليه بعض المؤرخين .

يقول « المقريزى » فى كتابه « اتّعاظ الحنفا » : إنّ الحاكم أمر « أن لا يزاد على قولهم "السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاتُه" . وأن لا يُصَلّىَ أحدٌ عليه فى مكاتبة ولا مخاطبة . وأن يُقْتَصَرَ فى مكاتبته على : "سلام الله وتحياته ونوامى بركاته على أمير المؤمنين" . وفى خطبة يوم الجمعة

" اللهمّ صلِّ على محمد المصطفى ، وسلّم على أمير المؤمنين المرتضى ؛ اللهمّ سلّم على أمراءِ المؤمنين آباءِ أمير المؤمنين ، اللهمّ اجْعَلْ أفضل سلامك على عبدك وخليفتك . . . "

ولنا فى الرسائل الثلاث الأولى من كتاب « السِّيَر » مصداقٌ لما نقول :

١ ــ جاء فى « السجلّ الذى وُجِد معلقًا على المشاهد » ، بعد البدء بعبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » ، والدعوة إلى « التوبة إلى الله تعالى ، وإلى الخليفة فى أرضه أمير المؤمنين » والصلاة « على سيّد المرسلين محمد المبعوث بالقرآن » . . . ما يلى :

« . . . فاشكروا الله ووليّه . . . إنْ تَعدّوا نعمة الله لا تحصوها . فعشتم فى فضل أمير المؤمنين . . . ثم من نِعمِه الباطنة عليكم إحياؤُه لسنن الإسلام والإيمان التى هى الدين عند الله . . . وبنى الجوامع ، وعمّر المساجد ، وأقام الصلاة فى أوقاتها ، والزكاة ، والحجّ ، والجهاد ، وعمّر بيت الله الحرام . وأقام دعائم الإسلام . وخفر الحجّ . وحفر الآبار . وأمّن السبيل . وعمّر السقايات . . . ويحثّكم على طاعته وطاعة رسوله وأوليائه عليهم السلام . . . وفتح لكم دار علم . . . فأعرضتم . . . ورفضتم العلم ، وأظهرتم الجهل . . . إنّ الإسلام والإيمان قد شملكم وجمعكم تحت طاعة الله وطاعة رسوله ووليّه أمير المؤمنين سلام الله عليه . . . »

ويُنهى « السجل » هكذا : « . . . كتبه مولى أمير المؤمنين سلام الله عليه فى شهر ذى القعدة سنة إحدى عشرة وأربع مائة . وصلى الله على محمّد سيّد المرسلين ، وخاتمَ النبيّين . وسلّم على آله الطاهرين » .

هذا المنشور يدلّ على أن « الحاكم » كان يمارس سلطته كما يمارسها سائر الخلفاء المسلمين ، وأما الدعوة الباطنية التى تولاّها وزيره حمزة فليس لدينا دليل على علم الحاكم بها .

٢ ــ أما المنشور المسمى « السجلّ المَنْهِى فيه عن الخمر » الذى كتب سنة ٤٠٠ هـ ، فإننا ننقل منه ما يلى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذى أعزّ الإسلام بأوليائه المتّقين . . . وصلى الله على جدّنا محمد خاتم النبيين ، وسيّد المرسلين . صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين . . . . إنّ أمير المؤمنين بما قلده الله ووكل إليه من أمور الدين والدنيا . . . والله عزّ وجلّ معينٌ أمير المؤمنين على ما يرضيه . . . وقد أمر أمير المؤمنين بكتابة هذا المنشور بالنهى عن شرب شيء من المسكر وعن اقتنائه وعمله . . .

«كتب فى شهر ذى القعدة سنة أربع مائة . والحمد لله وحده ، وصلواته على رسوله خاتم النبيين وآله الطاهرين ، وسلامه » .

٣ ــ فى الرسالة الثالثة يقول « الحاكم » :

« اسألوا عما أردتم وأنتم آمنون بأمان الله تعالى وأمان جدّنا محمد وأماننا . . .»

على أن حمزة بكتابه [الرسالة ٦] يقول إنه رفعه للحضرة اللاهوتية سنة ٤٠٨ هـ . ويقول عنها إنها « أولى سنى ظهور عبد مولانا ومملوكه ، هادى المستجيبين ، المنتقم من المشركين بسيف مولانا جلّ ذكره ، لا شريك له ، ولا معبود سواه . . . »

بهذا ، فى ذلك الحين ، أخذ حمزة الميثاق على المستجيبين للدعوة السرّية . وإن كان الكتاب الأوّل يخالف ، كما رأينا ، هذه الرسالة ٦ ، ولا يتضمّن دعوتها . والسبب ، على ما نرجّح ، هو أنّ ذلك الكتاب وُجّه فيما بعد بشكل منشور علنىّ لجميع الناس . أما الرسائل السرّية فإنها تدعو إلى الألوهية . منها الرسالة ٩ التى جاء فيها :

« الحذر الحذر أن يقول واحد منكم بأنه (أى الحاكم) ابن العزيز أو « أبو على » . لأنّ مولانا سبحانه هو هو فى كلّ عصر وزمان ، يظهر فى صورة بشرية ، بتغيير الاسم والصفة لا غير » .

وإنى لأذكر عتاب كبير الأشياخ الثقات لأنى ذكرت فى أحد الكتب المطبوعة أنّ أم الحاكم كانت صقلبية . إذ قال لى إنّ الحاكم لا أمّ له ، مردّدًا ما جاء فى الرسالة ٢٦ : « حاشا مولانا جل ذكره من الأب والابن

والعم والخال . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤًا أحد » .

وفى الرسالة ٣٦ جاءَ عن « الحاكم » أنه كان « القائم » (بالتجلى) . وأنه مع جدّه « المعزّ » وأبيه « العزيز » شخص واحد . بقولها «وكلهم واحد» .

من سيرته :

يصفه المؤرخون بأنه كان غريب الأطوار ، مستبدًّا ، متقلّبًا ، كثير السخاء والجود ، متصوّفاً ، زاهدًا ، لبس الصوف الخشن تنسكًا وقنوتًا ٧ سنوات . وأنار الشموع ليلاً ونهارًا ٧ سنوات ، وألْزَمَ نساءَ القاهرة بيوتَهن ٧ سنوات ، ومنع فتح نوافذ للبيوت تطلّ على الشوارع ، ونهى عن أكل الملوخية ، وحرّم من البقول الجرجير ، كما حرّم الخمر بموجب « سجلّ » قُرِئَ على المنابر [الرسالة ٢] . ومنع صلاة التراويح عشرين سنة ثم أباحها .

ويصفونه بأنه كان ، جبّارًا ، هائل المنظر ، مهيب الطلعة ، ذا هيبة ونظرات نفاذة . وصوت مجلجل مخيف ، شديد المراس والسطوة ، كثير الرحمة . عظيم الشجاعة والإقدام منذ تولى الخلافة وعمره ١١ سنة .

كانت انتصاراته منذ حداثته أشبهَ بالأساطير ، فإنه كان يقهر جيشًا جرارًا بفئة من المقاتلة . قيل فى تعليل ذلك إنّ دعوته سبقت فتوحاته ، وتغلغلت فى بلدان أعدائه ، فكان جنود الأعداء حين يرونه فى مواجهتهم ينْحازون إليه تاركين صفوفهم ، تمامًا مثلما فعلت الجيوش التى أرسلت للقبض على نبوليون فانحازت إليه بعد هروبه من جزيرة «إلبا» ونزوله فى جنوب فرنسا وحيدًا مع نفر من حاشيته .

من ذلك ما يروى عن هجوم الوليد بن هشام ، الملقّب « بأبى ركوة » ، بجيوشه على القاهرة بعد انتصاراته المتواصلة . وهزمه عندها « الحاكم » بحامية صغيرة ، هزيمةً شنعاء لم يجد لها المؤرخون تعليلاً ، كما هزم ، بنصر مؤزّر ، جموعَ القرامطة الأشداء ، الذين كانوا قد انقلبوا على الفاطميين بعد موالاتهم الطويلة .

إلى جانب بطشه وقسوته كان متحلياً بالوداعة والتواضع والسهر على الرعية. فقد كان ينتقل وحده فى القاهرة وضواحيها بدون مرافقين ولا حرس. فى ذلك يقول «كتاب اليونان» [«رسالة الدر المكنون»] إنه «كان، إذا أراد الطواف فى المدينة، يركب على أتان». ويروى أنه كان يأمر أن تظل الحوانيت مفتوحة طول الليالى فى غياب أصحابها دون حراسة. ويسترد كل ما يُسرق منها فوراً بعلم خارق. وكان يُجرى تفتيشاً دقيقاً لأعمال الدولة، كثيراً ما يقوم به بنفسه، لمكافحة الغش والإهمال والفساد، وللإشراف على حاجات شعبه وتصرفاتهم.

تقول الرسالة ١٢ [«السيرة المستقيمة»] إنه كان يمشى أنصافَ الليالى فى أوساط الذين أعدم آباءهم وذويهم، بدون سيف ولا سكين. ويذهب إلى صحراء الجب وحدَه حيث كان أعداؤه (مفرج بن جراح وأعوانه) يتربصون له . . . وكان يجعل أخصامه يحملونه على محفّة (محارة) ويسيرون به بين أعدائه.

ويروى عنه أنه علم سنة ٣٩٣ هـ بأن عدوه ملك الروم باسيل يحج فى القدس متنكراً؛ فبعث إليه برقعة سرية يُعرّفه بها أنه عالم بوجوده فى بلاده وفى متناوَل يده، وأنه مع ذلك يهبه نفسه ويتركه يتم حجه. فقد اتسم عهده كعهد والده بالتسامح؛ فإن «العزيز» رفع إلى أرقى مناصب الكنيسة أحد المسيحيين من أعوانه، جعله بطريركاً فى القدس سنة ٣٧٥ هـ، وعين آخر مطراناً للقاهرة رقاه «الحاكم» فيما بعد إلى السدة البطريركية بالإسكندرية سنة ٣٩٠ هـ. ومنح المسيحيين أماناً جاء فيه:

«هذا كتاب من عبد الله، ووليه المنصور أبى على الإمام الحاكم بأمر الله، أمير المؤمنين . . . لجماعة النصارى بمصر . . . أنتم جميعاً آمنون، بأمان الله عز وجل، وأمان نبيه خاتم النبيين . . . هذا على نفوسكم ودمائكم وأولادكم وأموالكم وأحوالكم وأملاككم ... أماناً صريحاً . . . فثقوا به واسكنوا إليه . . . وكفى بالله شهيداً.

كما أنه أصدر قوانين لصيانة الأخلاق ، فمنع العبث والمجون وخروج النساء ليلاً ، ولصيانة الصّحة منع مثلاً عجن الخبز بالأرجل ، وشُرْبَ الخمور . ورغبةً منه في تنمية الاقتصاد نهى عن ذبح البقر ، مدّةً ، للإكثار من الماشية . وكافح الغلاء والاحتكار ، وحدّد أسعار المواد الغذائية ؛ وكان يشرف بنفسه على مصالح دولته ، وينزل أشدّ العقوبات بالمخالفين . ومنع الناس من ذكر عبارة « سيدنا ومولانا » في المكاتبات ، ومن تقبيل الأرض بين يديه ، ومن تقبيل يده عند السلام عليه ، ومن أن يصلّى عليه في الخطب الدينية ، ومن ضرب الطبول والأبواق حول قصره ، ومن إقامة الزينات في طريقه إلى المصلّى بجبل المقطّم ، إذ كان يخرج للصلاة في أبسط المظاهر .

و « عُنِيَ عنايةً خاصةً بتنظيم القضاء وتطهيره من الرشوة » . . . وكان زاهداً في مال الدولة برغم ما تكدّس لديه من الأموال والتّحف . . . وكان إذا كثرت أموال أحد رجاله أضافها إلى خزائن الدولة . . . ومع هذا كان يُسرِف في العطايا والهبات .

كان يرصد النجوم في مرصده بجبل المقطم ، ولكنّه حرّم مهنة التنجيم ، سنة ٤٠٤ هـ بمرسوم ، لأنّ المنجمين أخذوا يسيطرون بالشعوذة على عقول الكثيرين من الناس .

في هذا تقول الرسالة ٨٥ : « وأنا أذكر خلل عقل مَن جعل للنجوم أحكاماً وتقديراً ، وسعْداً ونحساً ، وأنّ لها في أرزاق العالم وقسمتها تدبيراً وتأثيراً . . . فمن رضي بشيء من هذا — سوى فعلها في تنمية الأجسام الكثيفية — فقد أشرك » .

فالمذهب لا يقول بالعجائب ، ولا تنطوي الدعوة على الاستعانة بها ، بل ينهى عن التمائم والتعاويذ : « قلْ أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضرّ هل هنّ كاشفاتُ ضُرِه » ؟ [الآية] . في ذلك يقول : « من علّق تميمة فقد أشرك » . وفي نهيه يقول إذا كان الإيمان بالعجائب من علامات النبوّة فإنه لا يبقى لإثبات الحقيقة وعلوّ الكعب في الدين سوى خرْقِ النواميس الطبيعية التي سنها الله .

أما الرُّقى التي تمارسها بعض النسوة فهي دخيلة ، ووسيلة للكسب ، وحيلة

ينكرها المؤمنون ، كما ينكرون النذور التي يؤدّيها الساذجون . « وإن يَمْسَسْكَ الله بضرّ فلا كاشف له إلاّ هو » [الآية] . « قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض » [الآية] وقد قال الرسول : « لا يُستغاثُ بي . وإنما يُستغاثُ بالله » .

اختفاؤه :

في اختفائه روايات كثيرة . منها أنه لما علم بدنوّ الأجل جمع القضاة والعلماء والفقهاء والأمراء والقادة في قصره — مثلما جمع المسيح تلاميذه على العشاء « الرباني » — وأوصاهم بالطاعة وبموالاة جماعته ، مستحلفاً إياهم « بحق محمد رسول الله » . . . . وأنه خرج ليلة الاثنين ، في السابع والعشرين من شهر شوّال سنة ٤١١ هـ . وحصل في ذلك اليوم كسوف الشمس — شبيه بما حصل عند صلب المسيح — تزجّه إلى شرقيّ حلوان ، ومعه ركّابيان ، أعادهما إلى القاهرة . ومضى .

وبعد ثلاثة أيام من انتظار عودته ، وقد تعوّدوا منه مثل هذا الغياب ، خرجت حاشيته إلى دير القصر والمكان المسمى « سلوان » . للبحث عنه . فوجدوا في ظاهر الجبل حمارَه الأشهب . ثم تبعوا الأثر ، حتى انتهوا إلى البركة والمقصبة شرقي « حلوان » . فوجدوا عندها ثيابه ، وهي مزرّرة ، لم تُحَلّ أزرارها .

« المقريزي » يقول إنه « فُقِد » ، هكذا : « فلما كان لليلتين بقيتا من شوّال فُقِد الحاكم . وقيل . . . » ثم ينفي اتهام أخته ستّ الملك بقتله ، قائلا إنّ ذلك « جاءنا من كلام المشارقة » . . كما ينفيه في تاريخه « يحيى بن سعيد الأنطاكي » . أما أبو المحاسن بكتابه « النجوم الزاهرة » فيقول إنها دبّرت قتله « لأنه اتهمها في أخلاقها » . وكان يبدي سخطه عليها وكرهه لها ، فانتقمت منه .

هكذا يكتنف الغموض حياة الحاكم ونهايتها . أما ما يؤمن به أتباعه وما ورد عن تلك النهاية فإننا نكتفي منه بما ورد في الرسالة ٧٣ :

تقول عن غيبة الحاكم بعد « التجلّي» : إنه « احتجب بنوره عن خلقه ،

فلم يُقتفَ له أثر ، واستتر لغيبته وليُّه وصفيُّه (أى حمزة) ، وخلّف دعاةً » .

وفى الرسالة ٧٦ يُنسَب إليه القول التالى :

« . . . واعلموا أنّ غيبتى عنكم غيبة امتحان لكم ولجميع الأديان ، فمن وفى منكم بما وُثِق عليه ، ولم ينكص على عقبَيْه ، فسأوتيه أجرًا عظيمًا » .

ويقول « السجلّ المعلّق » بعد غيبته إنّ من دلائل غضبه عليهم غيابه عنهم . وإنهم بالتوبة والتوسل بالصفح والمغفرة « قد ينالون غفرانه » . وهاهى مقتطفات من صلاة الغفران :

صلاة :

« ها أنا يا إلهى متوجّه إليك ، متكل فى النجاة عليك ، نجنى يا إلهى من الغفلة عن الحق القاصد ، والاشتمال بالغرور البائد ، إليك هربْتُ من ذنوبى ، وأمَلْتُك لكشف كروبى . وستر عيوبى ، فامْنُنْ علىّ برضاك . وأعنّى على ولاك ، والبراءَةَ من أعداك . لك زيارتى ، وإليك معنى إشارتى ، فتصدّق علىّ بنظرة منك تُحيينى ، وتعطُّف يُغنينى ، ورضًى يُنَجّينى . أنت صاحب العاجلة ، وإليك حُكْم الآجلة ، مَن طلب من الدنيا أعطيتَه ، ومَن طلب من الآخرة دلَلْتَهُ وهدَيْتَه . سماءُ مجدك مُطلّة ، وسحائب جودك مُنْهلّة . أنت المُغْنى من كلّ قِلّة ، والشافى من كلّ عِلّة ، وأنا عبدُك اللائذُ بحَرَمك ، الشاكرُ لنعَمك ، المستقيل من نِقَمك ، المستجيرُ بك فى الدنيا من الحيرة والفَقْر ، وفى الآخرة من عذابِ القبر . احفظنى من فتنة الدّجالين ، ومن غرور الغاوين ، ومن بلَس كلّ شيطان مارد رجيم ، وهَبْ لى النصرَ والغلبَة على شهوات نفسى ، وخبائث وساوسها وشرورها . إنك حميد مجيد ، جوّادٌ كريم . تجاوزْ عمّا مضى . واعفُ عنا . واغفر لنا ذنوبنا . وبدّل سيئاتنا بوعدك الصادق ، وإحسانك القديم ، يا ولىّ الصالحين ، وغايةَ الطالبين ، وأنسَ العارفين ، ورجاءَ الموحّدين . بك اهتدينا ، وبنورك أبصرْنا ، وعليك اتكلنا ، إنك أهل التقوى ، وربّ المغفرة ، لك الحمد على ما مننت يا مولانا . وإنك نعمَ النصيرُ المعين » .

تاريخ « التوحيد »

يبدأ هذا التاريخ سنة ٤٠٨ هـ ، وهي سنة « الكشف » أي السنة الأولى لظهور حمزة بالدعوة . لذلك نجد رسائل المذهب مؤرّخة بسنين تسمّى « سني حمزة » ، لا الحاكم . هكذا في آخر بعضها : « كُتِبَت في شهر كذا . . . من سنة كذا . . . من سني عبد مولانا جلّ ذكره ومملوكه حمزة بن علي بن أحمد هادي المستجيبين ... إلخ » . أو هكذا ، مثلا ، في الرسالة ١٦ : « رُفِعَت نسختها إلى الحضرة اللاهوتية في شهر ربيع الآخر الثاني من سنة عبد مولانا ومملوكه حمزة . . . » إلخ . وهي سنة ٤١٠ هـ ، السنة الثانية من سني حمزة . لأن السنة ٤٠٩ غير محسوبة من سني حمزة إذ أنه لم يمارس سلطته فيها . فقد كان غائباً . كما سنوضح فيما بعد .

كانت السنة الأولى ابتداءً من شهر صفر ، ورد ذكرها أوّلاً في أولى رسائل حمزة ، ثمّ أرّخت بموجبها رسائل « الحكمة » أو « المعلوم الشريف » تباعًا ، حيث يُذكر التاريخ .

في تلك السنة أعلن حمزة ألوهية الحاكم ، بعدما ظهر من حماقات نشتكين « الدّرزي » ، الداعي الذي نُسِب الدروز إلى اسمه في ديار الشام . مما يدلّ على أن الدعوة بدأت سرّيةً قبل ٤٠٨ هـ . في السنة التي سبقتها ، على ما أرجح ، أو ربما قبلها ، إذْ بُثَّ الدعاة سرًّا ، تمهيدًا لإعلانها فيما بعد . فكان السبب في التعجيل بها الفضائح المنسوبة إلى نشتكين وسوء تصرّفه واستعماله للسلطة منافَسَةً لحمزة وتمرُّدًا عليه .

ظهر حمزة بالدعوة في خلال ٤٠٨ و ٤١٠ و ٤١١ هـ . أما سنة ٤٠٩ فقد استُثْنِيتْ من سني حمزة . وبعد غيبة الحاكم عند آخر سنة ٤١١ اختفى حمزة في أوائل ٤١٢ من وجه نقمة طوائف المسلمين عليه .

كان نشتكين من الدُّعاة الأوّل سنة ٤٠٧ على الأرجح ؛ قبل إعلان الدعوة .

ثم إنه فى سنة ٤٠٨ دعا نشتكين « البرذعى » ، أبا منصور ، إلى التوحيد . ذكرُ ذلك ورد فى رسالة حمزة ١٦ : « وأما البرذعى فأنا أرسلت إليه ودعوته إلى التوحيد . . . فأقسم أنه لا يدخل فى هذا المذهب إلا بتوقيع من مولانا . فلما أرسل إليه الدرزى رسوله ومعه ثلاثة دنانير وأوعده بالمركوب والخلع ، مضى إلى عنده ، وفتح له أبواب البلايا والكفر » .

يُستدل مما نقلت أن الدرزى بعد استجابته على يد الحبال أصبح رئيس الدعاة فى ديار الشام ثم انقلب على حمزة الذى يقول فيه : « حذرتكم من نشتكين الدرزى والبرذعى وأصحابهما . وما كانوا فيه من الأفعال الردية » . وكان نشتكين ينافسه وينازعه على السلطة . فقد تنكر لإمامة حمزة ، فوجه إليه حمزة التنبيه التالى عند نهاية سنة ٤٠٨ هـ :

... « إنْ كنتَ تدعى الإيمان فأقرَّ لى بالإمامة كما أقررت فى الأول . . من غير أن تلعن أحداً . . . لأن اللعنة لا تزيد فى الدين ، ولا تنقص منه . وخاطب الناس بالتى هى أحسن . فإن مولانا يحبّ المحسنين . فإذا فعلتَ مالت قلوب العالم إلينا . . . . »

كانت سنو حمزة حافلةً بالدعوة ، والارتدادات ، ومكافحة المرتدين بعد استجابتهم . . ومواجهة المقاومين للدعوة . ونجد حمزة يقول بالرسالة ١٩ :

« — إلى معاند ومن معه فى الاعتقال . المصابين من عالم الضلال ، أما بعد فقد وصل إلىَّ رقعة من أبى القاسم مبارك (أحد الدعاة) أنه التقى ولد معاند وغلامه ، ومعهما رقعة بالسؤال عنى ، وتذكارهم للحضرة اللاهوتية التى لا تحتاج إلى تذكرة ، ولا تخفى عليها مَخْبَرَة » . . . ثم يشكو بها حمزة ممن استجاب ثم نكث « مثل على بن أحمد الحبال الذى كان مأذوناً لى ، وعلى يده استجاب نشتكين الدرزى . . . وأما أنت ، يا معاند . وأبا منصور البرذعى ، وأبا جعفر الحبال . فما منكم أحد إلا وقد دعوته إلى التوحيد . فأبيتم ذلك ، إلا أبو جعفر الحبال فإنه كان قد أجاب إلى مبارك الداعى أيده المولى . والذى منعه ولده على . . . وأما أنتم فملتُم إلى الحطام الفانية . . . »

ويروى بالرسالة ١٠ كيف انتصرت فئة قليلة من الموحدين على جيوش كثيرة في معركة المسجد ومعركة الدار . . .

ذلك أن نشتكين كان يسعى ليَحلّ محل حمزة مستعيناً بالبرذعي وغيره من الدعاة الذين انقلبوا معه على حمزة . وضرب السكة وزيّف الدنانير والدراهم في سبيل الوصول إلى السلطة . فردّد فيهم حمزة الآية :

« ولوشاء ربُّك لآمن مَن في الأرض كلهم جميعًا . أفأنت تُكرِه الناس حتى يكونوا مؤمنين وما كان لنفس أن تؤمن إلاّ بإذن الله » . . . [الآية ٩٩ و ١٠٠ سورة يونس] .

وقال إن الغطريس « هو نشتكين الدرزى الذى تغطرس على الكشف» . . . وإنّه « الضد الذى سمعتم بأنه يظهر من تحت ثوب الإمام، ويدّعى منزلتـــه . . . كان من جملة المستجيبين ، حتى تغطرس وتجبّر وخرج على إمامه حمزة . . . وادّعى منزلتَه حسَدًا له . . . وسمّى روحَه (أى سمّى نفسَه . بلهجة مصر حتى اليوم) في الأوّل " سيف الإيمان " . . . وزاد في عصيانه، فقال أنا سيّد الهادين . . . وغرّه ما كان يضربه من زَغَل الدنانير والدراهم . . . وأبى أن يسجد لمن نَصَبه المولى وجعله خليفته في دينه وأمينَه على سرّه وهاديًا إلى توحيده وعبادته » .

في الشهر نفسه ، ربيع الآخر « الثانى» (سنة ٤١٠ هـ) وجّه رسالة ثانية إلى الموحّدين [الرسالة ١٦] جاءَ فيها :

« . . . وأوّل ما حذّرتكم من نشتكين الدرزى والبرذعى وأصحابهما . . . اعلموا بأن الدرزى والبرذعى نطقا بغير معرفة ولا علم ، وعملا لغير وجه مولانا جلّ ذكره ، وأعليا البناءَ بغير أساس، وما أصاب أحدهما (الدرزى) ما أصابه إلاّ باستحقاق وعدل من المولى سبحانه على يدى . . . وكان قد سألنى مرارًا بكثرة أن أدفع إليه شيئًا من كُتبِ التوحيد مما ألّفتُه . فلم أفعل . وذلك مما تفرّستُ فيه من العاقبة الرديّة . وقد قال صاحب الشريعة : " احذروا من فراسة المؤمن فيكم ، فإنه ينظر بنورالله " [حديث] . . فنظرت إليه بنورمولانا ولم أفعلْ

أسلّمه شيئًا مما طلبه . فتردّى بالكبرياء وقال : " أنا خير منه وأقوى وأعلى". ولم يعلم أن الغالب مَن أعانه المولى جلّ ذكرُه » .

قتل نشتكين :

كان نشتكين قد أثار نقمة أهل السنة بما وجّهه من الشتائم ضدّ أعداء عليّ رضي الله عنه ، كما أثار نقمة الموحّدين . وكتب عنه إسمعيل التميمى (النفس) فى كتابه « اليونان » : أنّ « الدرزى تكبّر فسقط إلى الحضيض لأن الكبرياء أصل المآثم . . . إياكم وهذا الشقىّ . لكونه عصى دعوة المولى وخالفه . . واعتقد الحلول [مذهب المنصور الحلاّج الصرفى] . . . » إلخ .

فى شهر شعبان الثانى . أى السنة الثانية لدعوة حمزة وهى ٤١٠ هـ . وجّه حمزة إلى أعوان نشتكين وهم فى السجن ، الرسالة ١٩ التى سبق ذكرها واصفًا بها تعاليم نشتكين بأنها « الطوارق . والبوائق » لأنه أدخل بها تحريفًا وتشويهًا على رسائل حمزة بقصد التنفير والاستعداء . كما فعل الداعى المرتدّ الآخر سكين ، وابن البربرية « المعتوه الذى ادّعى منزلة الإمام المسيح » ، و « لاحق » الذى استوجب النقمة بالتحريف وزخرفة الآيات المكذوبة . و « مَحَلاّ » . و « مصعب » ، وغيرهم .

[تنبيه : — قلنا شعبان الثانى أى سنة حمزة الثانية وهى ٤١٠ . وكانت السنة الأولى ٤٠٨ . أمّا سنة ٤٠٩ فلا تحسب من سِنى حمزة لأنه كان مختفيًا فيها . فالرسالة ١٨ مثلا مؤرخة فى ربيع الأوّل الثانى . أى سنة حمزة الثانية ٤١٠ . والرسالة ٣٦ تاريخها محرّم الثالث . أى سنة حمزة الثالثة ٤١١ هـ . وهكذا كانت تؤرّخ الرسائل التى تحمل تاريخًا] .

قال حمزة فى الرسالة نفسها إنّ الإمامة لا يشترك فيها اثنان فى وقت واحد . فإنها نور كلىّ لا يقبل الانقسام ، وأشار إلى القصاص الذى أنزل بالمرتدين أمثال على بن أحمد الحبّال ، والعجمى ، والأحول ، وخطلخ ماجان . وغيرهم .

بها يعلن حمزة نبأ قتلهم وقتل نشتكين الدرزى سنة ٤١٠ هـ ، ويَعد معاند ، الذى وُجِّهت إليه الرسالة ، بأن يذكره ورفاقه فى السجن « للحضرة

اللاهوتية » من أجل العفو عنهم . « فى هذا إجابةُ سُؤْلكم . فأبشروا واعلموا أن الفرج قريب » .

هذه هى الرسائل التى يذكر حمزة فيها نشتكين . أمّا حيث لا يذكره بالاسم ، فإنه يشير إليه بنعوت مختلفة ؛ منها « الضد » و« الشيطان » و« الخصم» و « العجْل » . فى الرسالة ٩ يقول :

« فلا تكونوا ممن قالوا سمعنا وأطعْنا ، وشربوا فى قلوبهم " العجل " بكفرهم . والعجْل فهو ضدّ ولىّ الزمان . . . سمّى الضدّ عجلا لأنه ناقص العقل عجول فى أمره ، له خوار» — إشارة إلى الآية ٨٨ سورة طه : « فأخرجَ لهم عجلاً جسداً له خوار» .

غيبة حمزة :

بعد أحداث السنة الأولى ، ٤٠٨ هـ ، اختفى حمزة فلم نقف له على ذكر علَنىّ مدى سنة ٤٠٩ التى وُصِفَت فى مواضع كثيرة من الرسائل بأنها سنة المحنة أو الامتحان والعذاب ، لم يمارس فيها حمزة سُلطتَه . فقالوا إنّ القصد من الغيبة امتحان الموحّدين ، كما ذُكِر : « إنَّه يمتحن الخلق بغيبته فى التاسعة » ، والمحنة هى غيابه الذى عاقبهم به ، وقصَر اتصالاته فى أثنائها على أعوانه من الدعاة ، فكان يكتب لهم ويبثّ الدعوة سرًّا إلى مذهبه الجديد فى حذر شديد لم تُنْقَل إلينا أسبابُه ، ولعلّ الغيبةَ تدبير سياسى .

وصفها حمزه بقوله [الرسالة ١٦] : — « وقد سمعتم ما تُلى عليكم فى مجالس الحكمة من امتحان الإمام ، وخِفيْتِه ، ونُقْلَتِه من موضع إلى موضع نُقْلةَ الخفيَة . لا نقلة التغيير والغيبة ... وهى محنة عاقبكم بها المولى . . . لأنه سبحانَه أنعمَ عليكم ما لم يُنعِم على أحد فى الأدوار . . وأعزّكم فى وقت عبده الهادى ما لم يُعِزّ أحداً فى الأقطار » .

لم يَقصر اتّصالاته على المراسلة . بل جاوزها إلى انتقاء دعاته الذين وكل إليهم نشر العقيدة . فإننا ، مثلا ، نجد فى الرسالة ٢١ أنه فى شهر

شوّال قلد أبا عبد الله محمد بن وهب القرشي الداعي فرفع درجته إلى منزلة « الكلمة » بقوله :

« فرفعت درجتك وأضفتُ إلى منزلتك ، وهي المنزلة التي كانت للشيخ " المرتضى " قدّس المولى روحه ، وأنت تسلمتَ علومه و " حدّه " . وواريته في تربته . وقد سُلِّمتْ إليك جميع كتبه التوحيدية . . . لا فوقك أحد أعلى منك غير صفوة المستجيبين (النفس) الشيخ " المجتبى " ، أخنوخ الأوان ، وإدريس الزمان ، هرمس الهرامسة . أخي وصهري ، أبي إبرهيم إسمعيل بن محمد التميمي الداعي . . . فاستخرْ مولانا سبحانه . واخدم حقّ ما يجب عليك من مذهب مولانا ، والطفْ بالدعاة وجميع الموحّدين ، وأمُرْهم بالمعروف ، وانههم عن المنكر ، واستحثّهم على الخدمة اللاهوتية ، وأمُر النقباء بملازمة خدمتك ، ورفْع ما يكون من الأخبار إليك ، وما يتجدّد بالقاهرة وأخبارها و . . . فمن رأيتَ طريقه مستقيمًا ، فأحسنْ إليه . وقرّبْهُ منك ، وعرّفني حالَهُ » . . .

وكان حمزة قد قلد « المجتبى » المذكور ، قبل هذا ، كما يُستدَل من النصّ ؛ وإنْ لم يُذكَر التاريخ في « سجلّ المجتبى » [الرسالة ٢٠] إذ قال فيه : « فجعلتك خليفتي . . . وجعلت لك الأمر والنّهْيَ على سائر الحدود ، تُولّي من شئْتَ . وتعزِل مَن شئْتَ . . . من خالفك فقد خالفني ، ومن أطاعك فقد أطاعني » . . .

يبدو أن حمزة لم يكن في القاهرة حيث يقيم الحاكم ؛ بل كان مختفيًا في مكان آخر ، فإنه يقول بالرسالة ١٩ : « ورسُلي واصلة بالرسائل والوثائق إلى الحضرة اللاهوتية » .

كما يبدو أنه كان حائزًا تأييد الحاكم . إذ أنه يقول : « والآن فتأييد مولانا سبحانه واصلٌ إليَّ . ورحمته وأفضاله ، ظاهرةً وباطنةً ، عليَّ . وجميع أصحابي المستجيبين عزيزون مكرّمون . وفي الشرطة والولاية وأصحاب " السيارات " مقضيُّو الحوائج دون سائر العالمين » .

وكان يُصدر الأوامر من مُعتكفه ، كالأمر الذى أصدره إلى القاضى أحمد بن العوّام [الرسالة ٢٨] يوبّخه على تسمية نفسه « قاضى القضاة » . ويمنعه به من النظر فى قضايا الموحدين . قائلاً : « إياك أن تنظر لموحّد فى حُكْم . . . أرسله إلىّ لأحكم أنا عليه بحكم الشريعة الروحانية التى أطلقها أمير المؤمنين » . مما يدلّ على أنه كان للموحدين قانون خاص ، كقانون الأحوال الشخصية ، فى ذلك الحين . وقد يكون هذا الأمر كُتب عند نهاية اعتكافه أو بعدها .

عودته :

عاد حمزة فى السنة التالية (٤١٠ هـ) بقوّة ونشاط ، يشدّ أزْر أتباعه ، بما خصّه الحاكم به من التأييد . وفوّض إليه من أمور الرعية . وأطلق يَدَه فى شؤون تدبير الملك فإنه يقول بعزم بالغ [الرسالة ٣٣] : « . . . أنا صاحب سرّه وأماناته . أنا . . . أنا مسيح الأمم ، ومنّى إفاضَة النعم . أنا . . . فالويل كلّ الويل لمن حاد عن طاعتى . . . فقد أوحى إلىّ سبحانَه أنه لا بُدّ من إنجاز الوعد المحتوم . وقتل كلّ كافر ظلوم . . . وأملك بسيفى جميع البلاد . . . فمن آمَن قبْل ظهور الوعد ، نال المفاز مع الأبرار ، وحلّ فى دار النعيم والقرار . . . فاصبروا على الامتحان . . . وصونوا " الحكمة " عن غير أهلها . . . اقبلوا ما أمرتكم ، وانتهوا عما نهيتكم . وارتقبوا ما وعدتكم . . . » .

ويفسّر الخفية والظهور قائلاً [الرسالة ١٨] : « لما خفى أخفيناه ، ولما ظهر أظهرناه » . . . فالمولى « ستر توحيدَه وقتَ شاء . وأظهره كما شاء . . . إلى أن بلغ الكتاب أجلَه ، وجاءَ الوعد المعلوم ، وظهر المكتوم . . . فأظهرناه عند إظهاره ، وسترناه عند استتاره » .

ثم يقول [الرسالة ١٦] : « . . . ومولانا جل ذكره لايستر عبدَه الهادى إلى عبادته عن عبيده أياماً يسيرة (سنة ٤٠٩) إلا لما يريد من إظهاره على

سائر العبيد (سنة ٤١٠) ويؤيّده بالقدرة والتأييد » . وهى السنة التى أظهر فيها بطشه بقتل الدرزى والبرذعى وعدد كبير من أعوانهما . فقد أطلق الحاكم يده فى الحكم حتّى قال : « الويل كل الويل لمن حاد عن طاعتى » .

منذ تلك السنة (٤١٠) أخذ ثانى الحدود (النفس) يوجّه رسائله فى نشر الدعوة ، أشهرها كتابه « تقسيم العلوم » . وتمّ تقليد المقتنى بهاء الدين ، أبى الحسن على بن أحمد السموقى [الرسالة٢٢] . وتقليد ، أو تعيين ، سائر الحدود والدعاة . كما نستنتج . لأنه ليس من المعقول تعيين خامس الحدود ، بهاء الدين ، قبل رابعهم الذى لم يرد فى كتب الحكمة نبأ تقليده فى سجلّ خاصّ ، بل ورد فى تقليد المقتنى أنه الرابع ، الشيخ « المصطفى » ، حيث يقول الكتاب : « فجعلناك الجناح الأيسر ، إذ كان الأيمن (المصطفى) قد تقدّمك ؛ وهو سلامة بن عبد الوهاب» أبو الخير السامُرّىّ . وهذا مما يجعلنا نقول إنّ ما لدينا من الرسائل قليل من كثير ، بعضه لا شكّ مفقود ، وبعضه ما لا سبيل إلى الحصول عليه لإكمال النواقص فى هذا التاريخ .

الختام :

كان ذلك سنة ٤١١ هـ ، وهى السنة الرابعة لظهور حمزة بالدعوة ، الثالثة من تاريخه الدينى أى من الكشف أو تاريخ نشاطه الظاهر وممارسته السلطة . لم يعلن فيها عن نشاط كبير . فيها اختفى الحاكم فى٢٧ شوّال .وبعد اختفائه أو غيبته وجه حمزة منشوره التاريخى المسمّى« السجلّ الذى وجد معلّقاً على المشاهد فى غيبة مولانا الإمام الحاكم» ، المؤرخ فى « شهر ذى القعدة سنة إحدى عشرة وأربعمائة » . وقد يكون أولى رسائله فى تلك السنة . وهى الرسالة ١ من كتاب « السيّر » ، أوّل كتب « الحكمة » .

عُلّق هذا المنشور فى المساجد للتعميم ، فقد جاء فى نهايته : « حرام حرام على من لا ينسخه ويقرؤه على التوّابين . . . حرام حرام على من قدر على نسخه وقصّر » .

دعا فيه إلى الثبات على الإيمان . واستهلّه بأسلوب غير باطنيّ ، وعبارات جلية مختلفة عن رسائل الدعوة السرية . نورد بعضها للدلالة على اختلاف الأسلوب فى المخاطبة الظاهرة ، الموجّهة إلى « الكافة » .

بدأ المنشور بعبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » . ودعا إلى التوبة إلى الله ، وإلى « خليفته فى أرضه ، وأمينه على خلقه أمير المؤمنين . . . وصلى الله على سيد المرسلين محمد المبعوث بالقرآن إلى الخلق أجمعين . . وقد علمتم معاشر الكافّة أن جميع ما ورّثه الله تعالى لوليه وخليفته فى أرضه أمير المؤمنين . . . . فعشتم فى فضل أمير المؤمنين سلام الله عليه ، رغداً . . . من نعمه الباطنة عليكم إحياؤه لسنن الإسلام والإيمان التى هى الدين عند الله . . . وبنى الجوامع . . . وعمّر المساجد . . . وأقام الصلاة فى أوقاتها ، والزكاة فى حقّها وواجباتها ، وأقام الحجّ والجهاد ، وعمّر بيت الله الحرام ، وأقام دعائم الإسلام . . . . وفتح لكم أبواب دعوته ، وأيّدكم بما خصّه الله من حكمته ، ليهديكم بها إلى رحمته ، ويحثكم بها على طاعته وطاعة رسوله وأوليائه عليهم السلام . . . . فشنئتم . . . وكفرتم . . . ونبذتم . . . فلم يجبركم . . وأغلق باب دعوته . . . وفتح لكم دار علْم . . . فرفضتموه وأعرضتم . . . ومال بكم الهوى . . . ورفضتم العلم وأظهرتم الجهل . . . إنّ الإسلام قد شملكم تحت طاعة الله ؛ وطاعة رسوله ، ووليّه أمير المؤمنين . . . و . . .

« . . . لذلك خرج من أوساطكم . . . فمن دلائل غضب الإمام إغلاق باب دعوته ، ورفْع مجالس حكمته . . . قال الله : " وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى " [الآية ١٨٦ سورة البقرة] . . . إن وقفتم على بَراحٍ من الأرض يكون أوّل طريق سلكها أمير المؤمنين وقْت، أن استتر نَضوَ أعينكم . . . فتوبوا إليه . وتوسّلوا بالصفح عنكم . وأن يرحمكم بعودة وليّه إليكم . . . فإذا أطلّت عليكم الرحمة خرج وليّ الله

إمامكم راضيًا عنكم ، ظاهرًا فى أوساطكم . . . »

وأنتهى المنشور هكذا :

« كتب مولى دولة أمير المؤمنين سلام الله عليه فى شهر ذى القعدة ٤١١ ، وصلّى الله على محمّد سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، وسلّم على آله الطاهرين ، وحسبُنا الله ونعم الوكيل » .

هنالك رسائل غير مؤرّخة قد تكون كتبت بعد هذا السجلّ ؛ فإنّ حمزة ظلّ على اتصال سرّىّ بدعاته ، واعدًا بقرب عودة الحاكم كما تدلّ إحدى تلك الرسائل التى كُتِبت بُعَيْد الغيبة ، وهى الرسالة ٣٥ . كتبها حمزة ، وحملها أبو يعلى إلى أهل جزيرة الشام ، بعد بضعة شهور من غيبة الحاكم ؛ فى آخر ٤١١ . ذكّرهم بها ما جرى لولىّ العهد الأمير عبد الرحيم ابن إلياس بعد إشراكه « فى الخطبة على المنبر ، وفى السكّة على الدينار » . وكان الحاكم سنة ٤٠٤ أوصى له بولاية العهد . وهو ابن عمّه ، بدلاً من ابنه « الظاهر » ، خلافًا لتقاليد الإمامة الفاطمية التى تقضى بانتقالها من الأب إلى الابن ، ثم غضب الحاكم عليه فأمر بإحضاره من الشام فأحضره بهاء الدين فى قفص من حديد بعدما كان الحاكم قد عينه واليًا فى دمشق ، فأخذ يدّعى القرابة ، ويظلم ويسفك الدماء ويحلل الحرام . لذلك كان غضب الحاكم عليه .

ولما تولى الخلافة « الظاهر » أرسلت ستّ الملك مَن قتل عبد الرحيم فى سجنه .

عن هذا الأمير تقول الرسالة ٤٤ [« رسالة بنى أبى حمار »] إنه كان « ذا مال ، وملْك ، ورجال ، وضَبْنَة ، ورهط ، وعبيد ، ومماليك . . . فلم يمنع منه سلطانُه ولا ماله ولا رجالُه . . فأخذ أخْذ العبد الذليل . . . والعلّةُ فى ذلك إنكارُه لمبدعه ، وجحودهُ للمنعم عليه . . . »

كاتب هذه الرسالة بهاء الدين ، وإن كان أسلوبها كأسلوب رسالة « الغيبة » ومطلعها ، كمطلع تلك ، خاليًا من تمجيد حمزة . دليلنا على ذلك

ما ألحقَ بآخرها من « الشكر لقائم الزمان » . وقد نصّت « الغيبة » على ما يلي :

« . . . وهي رسالة التحذير بعد الغيبة بشهور عدّة . . . توكّلت على مولانا . . . المنزّه عن العدَم إذا استتر . . . بتقدير أحكامه امتَنّ على خلْقه بوجود صورته من جنس صورهم . . . فأنِسَت العقول إلى ظاهر صورته . واستدرجهم إلى معرفته ، بلطيف حكمته » .

وفيها من التحذير والتنبيه والتثبيت على الإيمان ما يحسُن إيرادُ بعضه لما فيه من الحكَم :

« إن حطام الدنيا منالُه سهْل . ولكنه مضمحِلّ فان ، واكتساب الدِّين صعب ، ولكنه دائمٌ باق . . معشْرَ الإخوان ، من قلّت ثقتُه بالله ، وخشي من بشَرٍ مثْلَه ، أوقعَهُ باريه فيما منه فزع وحذر . . . معشرَ الإخوان ، إيّاكم النِّفاق ، فإنه بابُ التشتُّت والافتراق ... معشرَ الإخوان ، مَن خَشيَ بَشَرًا مثلَه سُلِّط عليه . . . لا تصحّ الديانة إلا عند الامتحان . في وقت السلامة والعافية يكون العالم متساويًا ، لا فاضل ولا مفضول ، وإنما تُنال الدرجات ، وارتقاءُ المنازل المرتفعات ، بالصبر في وقت الشدّة . . فمن صبر على المكاره نال المسرّات . . . معشرَ الإخوان ، الحذر الحذر أن تكونوا ممن يخشون على تمزيق " أقمصتهم " (أي موت الجسد الذي تتقمصّه الروح فهو « قميصها » . وهو « الصورة ») وغَيْبة صورَهم . . . ارضوا وسلِّموا في السرّاء والضرّاء . . . وأقِلُّوا الاعتراض فيما يظهر لكم من خير وشرّ ، وإحسان وضرّ ، يخفّف عنكم المحنة ، ويكشف عنكم الغمّة . فليس بينكم وبين عالم الجهل فرق إلا الرضى والتسليم . والرضى والتسليم غاية العلم والتعليم . . . من انتسب إلى قوم لا يأتي بأفعال أضدادهم . . . واعلموا ، معَشْرَ الإخوان ، أن الله غنيٌّ عن عباداتكم ، منزَّهٌ عن دياناتكم . لا يزيد في مُلكه طاعةُ من أطاعه . ولا ينُقص من مُلكه معصيةُ مَن عصاه . وإنما هي أعمالكُم تُرَدُّ إليكم ، وما أتاكم من صعوبة زمانكم فهو من سوء أعمالكم . . .

« معشرَ الإخوان ، تيقّظوا قبل ظهور الصورة . فكلّ عبادة عند ظهورها مجبورة . . .

« معشر الإخوان ، قد قرب إليكم ما تباعد عنكم . . . تَوقّوا الظلمة عند طلوع الفجر ، فإنها أشدّ الليل سوادًا . . . تَوَقّوا المحنة فى آخر الفترة ، فإنّ فى آخر الفترة يكون ثوران القُدرة . . .

« معشر الإخوان ، لا يكُنْ مَثَلُكم مثَل مسافرٍ من بلدةٍ يريد وطنَه ، توانَى فى الحفظ من زاده ، ففرغ زادُه فى الطريق . فرام الرّجوع إلى البلدة التى خرج منها ، فلم يقدر . ورام الوصول إلى وطنه ، فلم يستطع . . .

« معشر الإخوان ، احذروا غِرّةَ الشيطان . فإن الضدّ يظهر من بيت الولى ، ظاهرُه ديانة ، وباطنُه خيانة . . .

« معشرَ الإخوان ، إنّ أعلى ما يكون الباطل ، يأتى عليه الحقّ فيُخْمِده . إنّ عبد مولانا ومملوكَه قائم الزمان قد أوثاكم الحجّة ، وأرشدكم إلى المحجّة فتيقّظوا من رقدتكم ، وأفيقوا من غفلتكم . . . حينئذٍ توفون أجورَكم وأنتم لا تُظْلَمون » . . .

حمزة

« العقل » أوّل « الحدود » . ظهر فى جميع الأدوار بأسماء مختلفة :

١ — فى دور آدم كان اسمه شطنيل .

٢ — فى دور نوح كان اسمه فيثاغورس .

٣ — فى دور إبرهيم كان اسمه داود

٤ — فى دور موسى كان اسمه شعيب

٥ — فى دور عيسى كان اسمه المسيح يسوع ، صاحب الإنجيل ، الذى ظهر على تلاميذه . (سنذكره فى فصل خاص) .

٦ — فى دور محمد كان اسمه سلمان الفارسى

٧ — فى دور الحاكم كان اسمه حمزة ، أى أنه كان مشخّصاً فيه ، ويجب الانتباه أنّ حمزة نفسه ، فى رسائله يمجد « العقل » ، كما فى الرسالة ٣٠ بقوله : « سبحانك يا مُبْدِعَ العقل التام » . . .

كان حمزة فارسيّاً . وُلد بمدينة زَوزَن فى خراسان من بلاد فارس سنة ٣٧٥ هـ . مساءَ الخميس فى ٢٣ ربيع الأوّل . وهو اليومُ (والتاريخ) الذى « ولد » فيه « الحاكم » بمصر . ولعلّ ذلك كان السبب فى أنّ الموحّدين يقيمون الصلاة الأسبوعية مساء كل خميس . أى ليلة الجمعة . إذ أن الحساب القديم كان يُتبِع الليلَ النهارَ الذى يليه .

فى العشرين من عمره فى السنة العاشرة من خلافة الحاكم جاءَ إلى مصر ، وتبع الحاكم ، وصار يلقّب ، بالفاطمىّ ، بعدما كان « الزوزنى» ، ويشار إليه فى رسائل « الحكمة » بعبارة « عبد مولانا ومملوكه » . ذُكِرت أكثر من مئة مرّة .

تمّ على فارسيته تعابير دخيلة على أساوب الإنشاء العربى . مع أنه كتب ببيان بليغ يغلب فيه السجع . فإننا نجد له فى رسائله عبارات مثل « العلىّ

الأعلى » و « تعالى سلطانُه علوًّا عاليًا عليًّا » [الرسالة ١٧] . و « جل ثناؤُه » و « جل اسمه » « الحاكم الحكيم » [الرسالة ٣٩] وتعابير فارسية مُدْخَلة ، مثل « هرمز » أو « هرمس الهرامسة » و « بارخُذاى » و « كرديو بكرديو ، وحقّ ميزة بتَرْديو » . وهى على قلة ورودها لها دلالاتها .

بظهور حمزة بن علىّ بن أحمد بدأت الدعوة « التوحيدية » ، وبها بدأ تاريخ من يسمّون اليوم « الدروز » ، سنة ٤٠٨ هجرية . فقد ورد فى ختام « الكتاب المعروف بالنقض الخفىّ » — ولعلّه أوّل كتب حمزة — كما يلى :

« رُفع هذا الكتاب إلى الحضرة اللاهوتية فى شهر صفر سنة ثمان وأربع مائة من الهجرة ، وهى أولى سنى ظهور عبد مولانا ومملوكه هادى المستجيبين المنتقم من المشركين بسيف مولانا جلّ ذكره ، لا شريك له ولا معبود سواه . وحسْبُنا مولانا وحده . قو بِل بها وصحّت » .

فإن حمزة قبل أن لُقِّبَ بالإمام سنة ٤٠٨ هـ كان قد أخذ يوفد دعاته ويوجّه رسائله سرًّا إلى البلدان الإسلامية وغير الإسلامية . استعدادًا لإعلان الدعوة فى تلك السنة التى فيها حدث السخط على نشتكين الدَّرَزى بعدما افتضح أمره واشتدت النقمة على أعماله ، مما أدّى إلى فتور فى بثّ الدعوة تلك السنة ، ومهّد للتخلص منه فيما بعد كما ذكرنا فى الفصل السابق .

استغرق نشاط حمزة بدعوته الظاهرة ثلاث سنوات ، هى ٤٠٨ و ٤١٠ و ٤١١ هـ . أما السنة ٤٠٩ فإنها ، كما سبق ذكرها ، كانت سنة استتار له ، زاول فيها اتصالاته سرًّا . وسمّيت سنة الامتحان والحفية . فقد كان ، بعلم الحاكم ، وبموافقته على الأرجح ، ينتقل فى خلالها خفيةً ، من موضع إلى آخر ، ربما تجنُّبًا لثورة الشعب عليه ، أو استعدادًا للظهور بقوّة التنظيم والتحضير لسنة ٤١٠ التالية الحافلة بالأحداث العقائدية .

فإن الشعب كان يثور على كلّ انحراف عن السنّة . وفى ثورة سنة ٤٠٩ ، يقول أبو المحاسن بكتابه « النجوم الزاهرة » [ج ٤ صفحة ١٨٣] إن حسن

الأخرم . لما أعلن لأوّل مرّة ألوهية الحاكم ثار عليه الناس ، ورفعوا شكواهم إلى القاضي أحمد بن العوّام . وظلّوا يتعقبونه حتى قبضوا عليه وقتلوه . وحلّ محلّه تلك السنة الدَّرَزيّ الذي اضطُرّ إلى الخروج من مصر إلى بلاد الشام حيث نشر دعوته .

بعد سنة ٤١١ هـ التي اختفى فيها الحاكم ثم اختفى بعده حمزة ، مرّت سنوات من الكتمان لم يظهر فيها حمزة . حتى أزيح الستار قليلاً عن نشاطه ، برسائل أرسلت إلى سواه وذكر فيها ، أو وُجهت إليه ، بعد قرابة عشرين سنة من غيابه . منها الرسالة ٧٩ التي كتبت على الأرجح سنة ٤٢٧ هـ . إذ تقول : « فقد أقمنا عليكم حجج الله من مدّة سبع عشرة سنة » . . . ومنها الرسالة ٨٨ [« المواجهة »] التي يتبيّن منها أن حمزة كان لا يزال على اتصال سرّيّ بدعاته ، على الخصوص « بالمقتنى » بهاء الدين كاتب الرسالة وهو يبدؤها « بالسلام على الإمام » موجّهًا إليه « عبيده الزائرين . . . رسل العبد الذليل » . ومنها الرسالة ٩٠ الموجهة « من المستقَرّ بالحضرة الطاهرة الشريفة » . وبها يشجّعهم على احتمال الأذى والضيق ويحثّهم على التمسّك بالإيمان ويَعِدُ « بالاجتماع عند ظهور وليّ الحق . . وقد شاعت أخبارُه . . . وتباشرت بها كافّة الموحّدين . . وهجمت الليلة التي نحن فيها ننتظر الصباح . . . ولو أمكن لشرحنا ما هو أكثر » . . . وردد الجواب [الرسالة ٩١] بشرى عودة الإمام : « فالحقّ قد ظهر إلى الإعلان ، واشتهر بظهور قائم الزمان ، باليمن الأقصى ، وقَرُبَ ما كان نائيًا . . فلتكن الكلمة واحدة ، والألفة مجتمعة ، والمذاكرة دائمة » . . .

غيبة حمزة هذه الثانية النهائية سمّيت غيبة الامتحان ، كما يقول بهاء الدين في « رسالة السَّفَر » [الرسالة ٦٨] مخاطباً « الموحّدين المظلومين الممتحَنين . . . المؤمنين الطاهرة المسلمين » ؛ وكما سميت في مواضع كثيرة من « المعلوم الشريف » أي كتب « الحكمة » . بقصد دعوة الموحدين إلى الإيمان برجوع حمزة . وإلى « طاعة وليّ الحق الإمام القائم المنتظر » كما تقول الرسالة ٦٨ التي كتبت بعد ١٩ سنة

من غيبته أى سنة ٤٣٠ هـ . وهى السنة الثانية والعشرون من سنى حمزة .

كرّرت هذه الرسالة عبارة « الهادى القائم المنتظَر » وعودته « الثابتة . . بظهور ولىّ الحق عند تمام الإرادة . . . فقد غاب سلام الله على ذكره ، بعد إيجاب الحجة على العوالم . . . إلى أجل يتمّمه بمعالم حكمته ، ويُنهيه إثباتًا لحجّته على العالمين » .

والرسالة ٤٣ تصوّر غياب حمزة بأنه سفر أو رحلة يعود منها . وفى الرسالة ٤١ « إشارة إلى استتار الإمام . . . (الذى) لما غابت صورة المعبود . وامتنع قائم الزمان عن الوجود (الظهور) . أيستْ كثير من النفوس ، من عدم العيان المحسوس . . . فتأمّلْتُ كتابًا وصلنى من مولاى قائم الزمان . . . »

حمزة نفسُه بالرّسالة ٣٤ يعلن هذا الاستتار ، حاثًّا أتباعه على الثبات على العقيدة والولاء للمذهب ، والمناصحة ، والمؤالفة والارتباط . متحدّثًا عن غيبته العتيدة المقبلة بُعَيْد اختفاء الحاكم ، وعن رجوعه هو قريبًا . محذّرًا ممن سيدّعون الإمامة فى غيابه . ويقول : « اعلموا أن غيبتى عنكم غيبة امتحان . . . فسوف يرد إليكم أمر ترونه عن قليل . . . فقد أزف الظهور ، وحان الوقت المقدور . وقد أنفذتُ إلى أهل طاعتى ، ومن هو متمسك بإمامتى ، هذه الرسالة ، إعذارًا وإنذارًا . وهدًى واستبصارًا ؛ فكونوا أيها الإخوان على أهبة من أمركم » . . .

يُستدلّ بالرسالة ٧٦ على أن حمزة كان بهذا « الإعذار والإنذار » يحذّر من ابن البربرية المدّعى الإمامة . وهو علىٌّ الذى ينكر حمزة أنه ابن الحاكم بأمر الله . ويَنْهَى المستجيبين بالرسالة ٩ عن أن يقولوا بأنّ الحاكم أبوه . وقد تولّى الخلافة بعد الحاكم . ينعته بهاء الدين بالرسالة ٧٦ بأنه « المعتوه المدّعى لمنزلة الإمام المسيح . . . النغل الشيطان ابن البربرية . . . الذى حذّر العالمَ من أُفْكه قائمُ الحق قبل غيبته » . يقصد رسالة حمزة ٣٤

ورسالته ٣٣ التى مهّدت لها وتضمّنت اعتزاز حمزة بما أولاه الحاكم من ثقة وسلطان وإطلاق يد فى حكم الرعيّة ، بالرغم من محاولة أخصامه الفاشلة ، وفى مقدمتهم مزاحمُه « ابن البربرية » .

كان حمزة يعيّن معاونيه ، « الحدود » الأربعة ، بموجب مرسوم تعيين يسمّى « التقليد » أى تقليد السلطة . من ذلك « سجل المجتبى » (النفس . إسمعيل التميمى) و « تقليد الرضى » (الكلمة . محمد القرشى) و « تقليد المقتنى » (التالى . على السموقى) ولم يرد نصّ تقليد ثالثهم « المصطفى » (السابق . سلامة بن عبد الوهاب السامُرّىّ) .

وكان المقتنى ، بعده ، يعيّن معاونيه من الدعاة . مثل « تقليد لاحق » و « تقليد سكين » و « تقليد أبى الكتايب » ، و الأمير معضاد . وبنى جرّاح .

يُشير التقليد إلى المهمّة الموكولة إلى الداعى . كقوله : « ادعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلْهم بالّتى هى أحسن » [الآية] ويأمر بالدعوة إلى التوحيد ، وأخْذِ الميثاق ، ونصبِ الدعاة والمأذونين ، والحذرِ من الفِتَن ، وحفظ اللحْظ واللفْظ . وجعل اللسان بِقول الحقّ هاديًا ودليلاً . . .

وما إلى ذلك من الوصايا والتعابير .

ويقسّم جهاز الدعوة إلى مناطق ؛ فتقليد سكين يشمل بالدعوة جزيرة الشام العليا ، والأردن ، وبلاد الشراه وعمان ، والبلقا ، وحمص ، وحماه ، وتدمر ، وسلمية ، وحوران . ويأذن بتعيين الدعاة والمأذونين ، ويحذّر « من الاستكثار ممن لا خير فيه » بما يشبه الانتقاء للجهاز الماسونى .

وتقليد الأمير معضاد يشمل عين صوفر ، والمروج ، وعين عار ، والبيره ، وكفر سلوان . إلخ .

وهكذا سائر « التقاليد » أو المراسيم ، ونقتطف من متْن تقليدين ما يدلّ على ما يتضمنه التقليد من فحوى . فقد جاء فى سجلّ « المجتَبى » ما يلى :

« . . . جعلتك خليفتى على سائر الدعاة ، والمأذونين ، والنقباء ، والمكاسرين ، وجميع الموحدين ، بالحضرة الطاهرة وفى سائر جزائر الأرض

وأقاليمها . . . وجعلت لك الأمر والنهى على سائر الحدود ، تولى من شئت ، وتعزل مَن شئت . . . من خالفك فقد خالفنى » . . .

وفى تقليد الرضى « . . . فرفعت درجتك . . لا أحد فوقك غير صفوة المستجيبين (أى المـُجْتَبَى) . . . مرْهم بالمعروف ، وانههم عن المنكـَر ، ومر النقباء بملازمة خدمتك ، ورفْع ما يكون من الأخبار إليك . ومن رأيتَه قصّر عن الخدمة ، وبان لك منه زلّة ، فأبدلْه بغيره » . . . واشتَرَطَ فى إثبات الزلة شاهدَين « ثقتين يشهدان فى وجهه . فإن تاب فتُبْ عليه » . . .

وكان « التقليد » يُنْسخ ويُسجَّل فى ديوان الموحّدين وديوان النقباء .

هذا هو باختصار جهاز حمزة فى نشر دعوته .

فلننظر أوّلاً فى حمزة والمسيح .

ثم فى رسالته وحدوده .

حمزة والمسيح

ليس لى فيما أدوّن رأىٌ خاصّ . إنما أنا أسرد موضوعيًّا ماانكشف لى من أسرارٍ قد يكون الكثير منها خافيًا ، حتى على أبناء المذهب . والخفاء جفاء ، ولا سيما إذا كان فيها تواصُلٌ بين الأديان ، يفيد معه الإعلان . وترابُطٌ سمَّيتُه فى فصل « الأسفار » قاسمًا مشتركًا .

فى ذلك الفصل أشرت إلى النظرية التوحيدية المتعلّقة بدور عيسى . إنها تقول إن عيسى هو الذى فرّ به والداه إلى مصر ، رضيعًا ، وعادا به بعد ست سنوات إلى الناصرة ، وإن حياته محاطة بالغموض كولادته ، إلا مدة رسالته وهى ثلاث سنوات بعد سنّ الثلاثين . فلا تختلف سيرته خلالها فى هذه الأسفار عن جملة ما ترويه الأناجيل .

لكنها تقول إن « المِدّ » لعيسى هو يسوع ، إذ أن لكلّ ناطق مُمِدًّا . ويسوع هو « السيّد الإمام العظيم ، صاحب البرهان والمعاجز ، الذى أشارت إليه الرسل . وهو الذى تبعه الحواريون ، إخوته الأكرمون ، صلى الله عليه وسلم . . . فلمّا صُلِب عيسى ودُفِن اجتمع يسوع بتلاميذه . . . «وما قتلوه وما صلبوه . ولكن شُبِّه لهم» وهذا ترديد للآية ١٥٧ من سورة النساء وتمامها « وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، ما لهم به من عِلْم إلا اتباعَ الظنّ ، وما قتلوه يقينًا . بل رفعه الله إليه » . . . فإن يسوع كان يُشبه عيسى فى جسده ، وزهده ، وعصمته ، كما تقول تلك الأسفار التى تؤيد اتصال المسيح بتلاميذه . وهذا القول يحدّ ذاته مشاركة جوهرية .

أما الفائدة من الاختلاف فى الشكل فهى الالتقاء فى الأصل . حتى إن بعض الطوائف المسيحية الأولى لم تكن تعتقد أن المسيح صُلِب . فالباسيليديون Basilidans (فى القرن الثانى للميلاد) اعتقدوا أنّ سمعان القيروانى هو الذى صُلِب ، وليس المسيح . وأيّد هذا الاعتقاد « إنجيل برنابا » .

والدوسيتيون Docetae كانوا يعتقدون أن المسيح لم يكن له جسد، بل كان صورة ، كما يعتقد الدروز فى « الحاكم » . وإنجيل مارسيون Marcionite ينكر ولادة المسيح كما ينكر الدروز ولادة الحاكم .

فى اختلاف الروايات الواردة فى الأناجيل – متى ولوقا على الأخصّ – تقول « الموسوعة البريطانية » حرفياً ما ترجمته :

« كلّ محاولة لتدوين سيرة حياة يسوع يجب الإقلاع عنها بصراحة ، لفقدان المادة التاريخية . فالحجّة التاريخية هى الإيمان والتبشير ، قبل الأناجيل » .

والمؤرخ الكبير فوكس جكْسُنْ ، بكتابه « يوسيفوس واليهود » ، فى معرض كلامه عن الرحالة « هيرودوتسْ » يقول : « كانت اليهودية فى القرن الخامس قبل المسيح منطقة صغيرة ، وأهلها كميّة مهملة ، بحيث إن أذكى المسافرين إذا مرّ عبْر سوريا وفلسطين ، قد لا يسمع بذكر لليهود » . فقد « كان ذلك الزمن زمنَ الأمور الصغيرة » كما قال « نَحَمْيا » أحد أنبياء اليهود . أو كما يقول « دين ستانلى » عن اليهودية : « كنت ترى أقصى أطرافها من أىّ مرتفع وقفت عليه » .

عن ذلك التاريخ يقول المطران الدبس (فى كتابه « تاريخ سوريا » . الجزء الثانى ، المجلد الثالث ، صفحة ٣٧٩ – ٣٩٠) رداً على إنكار اليهود ، وعلى المزاعم أن الأناجيل مختلفة وفيها تناقُض : « إن الكنيسة لا تعتدّ بشىء من هذه . . . أطلقَتْ لكلٍّ أن يعتمد على مايراه صواباً فيها دون أن تَضيمَ عقيدتَه بخلَل » .

فلنعد إلى النصوص :

الرسالة ٥٣ المنفَذَة بتاريخ ٢٢ صفر سنة ٤١٩ ﻫ . (أى السنة ١١ من سنى حمزة) إلى الملك قسطنطين (الثامن أخو باسيل الثانى) ، تبدأ بتمجيد « الإمام السيّد المسيح » . أى « العقل » . وهو حمزة فى زمن الحاكم ، وتصفه بأنه : « المسيح الإمام المتألّه لطاعة المولى الإله » . وتفسرّ قوله : « اهدموا

الهيكل وأنا أقيمه فى ثلاثة أيام » ، بأن اليوم الأوّل هو دعوته . والثانى ظهور الفارقليط (محمد) الذى تنبأ عنه إنجيل يوحنا (الإصحاح ١٥) . . واليوم الثالث هو قيام حمزة بالتوحيد فى زمن قسطنطين . فالثلاثة أيام هى رمز لثلاثة أدوار .

ثم تقول الرسالة : « فها هو قد ظهر لأهل التوحيد كما وعد . . . لكم سوابق فى الدين الصحيح ، فلا تنكروا بعد المعرفة رجوع المسيح » . أى المجىء الثانى فى شخص حمزة ، بعدما تحققت جميع النبوءات وظهرت العلامات المذكورة فى الأناجيل . . . إلخ .

والرسالة ٥٤ الموجّهة إلى : « جميع من تقرّب إلى اللاهوت بحقيقة القربان ، وتمسّك به من كلّ أهلِ الحقّ ، قسّيسٍ وبطرك ومطران ، أهل التوحيد والدين ، المقتفين لآثار الطهرة الحواريّين » كغيرها من الرسائل ، تردّد أن المسيح هو « العقل » ، وفى عهد الرسول هو سلمان الفارسى ، وفى دور « الحاكم » هو حمزة ، وأنّ الحاكم بمثابة « الأب » لحمزة كما كان الله بمثابة « الأب » للمسيح .

فى هذه الرسالة ، التى يرجّح أنها كُتبت بعد ٩ سنوات من غياب حمزة ، إشارة إلى مرور ٩ سنوات من الاضطهاد ، بقولها : « فأنتم عن هذه التسْع التى أعلن فيها ببشارة الملكوت غفُولٌ حيارى . . . إنّ العلامات كلها قد ظهرت . . . جميع هذه الأمور ذُكِرَت للراهب " الجرجانى " فى الرسالة التى سيّرها إليه السيد (حمزة) » .

وفيها ذِكْر « خروج المسيح من العالم » ، لا صلْبه . فإن الدعوة تتضمن ظهورَ المسيح ثانيةً بشخص حمزة ، ثم اختفاءه ثانيةً ليعود فى يوم الدينونة ، ولكن وجوده غير ظاهر « لا يخلو منه عصر » كما تقول الرسالة ٣٤ .

من باب التوفية ، لا بأس بإيراد الفقرات التالية من الرسالة ٥٣ :

« أريقوا أسماعكم أيها الإخوة للقول الصحيح . فقد شعّت الآفاق بنور قيام المسيح . . . إن النور قد جاء إلى العالم فأحبّ الناس الظلمة . . . فهذه

بشارات السيّد المسيح قد فلجت بها الحجة عليكم . . . لا ترجعوا بعد التوحيد على الأعقاب . . . وأنتم يا جماعة القدّيسين أوّل مَن اقتفى آثار الحواريين الحدود ، وأبصر وصبر على توحيد المعبود » . . .

ولا بدّ أخيرًا من الإيضاح أن المذهب يحترم ويكرّم جميع الأنبياء ، كما يفعل القرآن الكريم . ويعتبر النبوءة قداسة لا تنبؤًا بما سيكون ، ويأمر بأن لا يُوجّه الدعاءُ فى الصلاة إلاّ إلى الله ، عملاً بقول رسول الله : « لا يُستغاثُ بى . وإنما يُستغاثُ بالله » . وبقول الآية : « فلا تدْعوا مع الله أحدًا » . أما الشفاعات والوساطات فغير واردة فى المذهب ، ولا سلْطة لرجال الدين إلاّ بالموعظة والإرشاد وفقًا للآية : « فذكِّر . إنما أنت مذكِّر . لست عليهم بمسيطر » . وهم يُنذرون ويحذّرون ويرددون وصيّة فيثاغورس :

« أوّل ما أوصيك به تقوى الله ، وإكرام عُمّار الأرض ، وسلفك ، وذوى القربى و . . . ولا تنَمْ قبل تصفُّح أعمال نهارك ، لتكفِّرَ عن مكروهٍ أتيته ، وتبتهج بما أحسنتَهُ . فإن ذلك يرقّيك إلى الفضيلة الإلهية » .

رسالة حمزة

من أشقّ الأمور شرح رسالة حمزة ، أو دعوته الروحية ، لما تضمّنته من رموز كثيرة الغموض ، وإيضاحها فى فصل واحد ، مع التزام الإيجاز ، والتقيّد بنصوص العدد القليل من الرسائل التى بين أيدينا . لذلك أترك لسواى التوسع فى درسها ، ناقلاً بما أستطيع من أمانة فى الأداء ، ما يمكن استيعابه بسهولة ، من أقواله فى رسائله . إذ أنه ليس من حقى توضيحها وتفسيرها كما أفهمها ؛ رعيًا لحرمة أشياخها . . .

أبدأ بخلاصة مبسّطة من تعريف حمزة المسهب لعناصر الوجود الإنسانى ، وتفاعل الروح والعقل والمادّة فى التكوين . بما مفاده :

١ ــ البارى هو الإله العالّ . وكلّ شىء معلول بعلّته . وعلّته هى «العقل» المُبْدَع .

أما العالّ فإن العقول تقف حسرى عن إدراك لاهوتيّته .

وأما المُبْدَع فهو الجوهر الأزلىّ ، محرّكُ الحركة ، وهما متلازمان ، وهو المسمّى عالَم العقل السابق لكلّ فعل ومفعول .

ثم انفعل الفعل . ففعل فعلاً هو دونه . فكان ذلك عالم النفس الشريف ، المتحرّك بالمحرّك ، القائم بالحركة ، الثابت بالعظمة ، أى عظمة عالَم العقل ؛ لأنه أبسط الأنوار وألطفها . وعالم النفس دونه .

بذلك تباينا ، وبالجنسية تمازجا ، ولم يزالا متمازجين ، ومتحرّكين ؛ أحدهما دائر على الآخر ، وهما أوّل محرّك ومتحرّك بألوهية العالّ لجميع المعلولات .

من هذين الأصليين (العقل والنفس) ينبثق «الكلمة» البسيطة . والنور البسيط («السابق») . والحكمة اللطيفة («التالى») . أى سابق العلم والمعرفة الإنسانية وما يتلو منهما .

فيكون « العقل » محور ، أو نقطة بيكار ، أربعة جوانب . هى « الحدود » الأربعة (النفس ، الكلمة ، السابق ، التالى) لعالم الوجود الروحانى . أركان الوجود وأصوله .

٢ — أما تعريفه للعالم الجسمانى . أى الطبيعة المادّية . فهو إنها بدْءُ حركة وسكون من ذاتها المضافةِ إلى عالم النفس (أو الروح) الحاوى لها ، الحاكم عليها .

والطبيعة إنما تمّ أفعالها بالحركة ؛ ليخرج كلّ ما هو بالقوّة (أى الطاقة) إلى الفعل بالحركة . فإذا تمتْ فعْلَها من نحو شىء ، سكن فعْلُها فى ذلك الشىء . « فتكوّن » من الحركة حرارة ، ومن السكون برودة ، وتولّد بينهما رطوبة ويبوسة . وتولد من الحرارة واليبوسة النار . وتولد من البرودة واليبوسة الأرض . وتولد من الرطوبة والبرودة الماء . وتولد من الحرارة والرطوبة الهواء» .

٣ — تفاعلت الأصول الروحانية — العقلية ، والنفسية (الروحية) — ودخل فعْلُها فى الجسمانيات ؛ فارتفعت الأنوار بقوّة الحركة ، وتكوّنت الأفلاك ، والنيّرات ، والمجرّات ، و « الاستقصّات » ، المتحرّكة .

امتزج اللطيف بالكثيف ، وتكوّنت الجمادات ، والنبات ، والحيوان والإنسان الناطق الفاضل ، تمّ خلْقُهُ من نفس وجسد . من لطيف روحانى ، وكثيفٍ جسمانىّ .

« فما لطُفَ ، إلى عالم العقل يرقَى . وما كثف ، فى عالم الطبيعة يبقى . وقد ارتبط ما يبيد ويفنى ، بما لا يبيد ولا يفنى ؛ لأنّ اللطيف من بداية ، وليس له نهاية . والكثيف من بداية ، وله نهاية ، وهو آخر فعل الطبيعة . وإخراج ما فى القوّة إلى الفعل ، بالحركة » . . .

أوضح رسائله من هذا القبيل ، الرسالة ١٤ [« سبب الأسباب »] آخر رسائل الكتاب الأوّل من « المعلوم الشريف » ، وهى شرح لمهمة العقل ، وعلاقة العالين والدعاة به . كتبها جوابًا على استفسار وجّهه إليه أحد الدعاة : نلخّصها بما يلى :

ليس علم التوحيد كعلم الفلاسفة . فلا الإحدانيّة كالواحد ، ولا العالُ ، الذى لا يُدرَك ، كعلّة العلم . بل الحقائق من المُعلِّ الأحد ، تُمْنَحُ لعبده علةِ العلل الواحد ، الذى يفيد العالمين ، بما أيّده الله من حكمته ، فى كل عصر وزمان . والناس بمنزلة التلاميذ . كلّ صبيّ منهم عليه طاعة أبيه أكثر من طاعة المعلم . ويحبه أكثر منه .

إن الأب فوّض أمرَ ابنِه إلى المعلّم . على أن الأمر الحقيقى الكلّى للأب . ولكن المعلّم هو الذى يعلّمه الخير ، وينهاه عن الشرّ . . . فإذا كان للمعلم خصالٌ مذمومة كان الأبُ خصمَه . . . كذلك « إمام الزمان » ، عبد المولى جلّ ذكره ؛ فهو مؤدّب العالَم ، ومربّيهم بالعلم الحقيقى . فوّض اللهُ أمورَ عبيده الدينية إليه . وجعلَه علةً لهم . وبه ثوابُهم وعقابُهم .

والمولى سبحانَه المعبود . لكنَّه منزَّه عن المشافهة والمخاطبة . وعن التربية والإفادة . فجميع أمور الدعاة والمأذونين والمكاسرين والمستجيبين راجعة إلى الإمام (العقل) فى كلّ عصر وزمان . يعزل ، وينصب من يريد ، ويُعطى من العلم الحقيقى ، ليس له أن يدعو إلى نفسه فى العبادة . . . الإمام هو الأمير ، وسائر الحدود بمنزلة الجنود ، والمستجيبون بمنزلة الرعية ، فُرِضت طاعتُه عليهم . . . جعل الله العقل إمامًا — « لا إمامَ سوى العقل » — يتّصلون به إلى معرفة البارى المُعِلّ المبدِع الذى أبدع العقل » .

ثم يقول عن نفسه : « ما مِنْ عصْرٍ إلا دعوتُ فيه العالمين إلى توحيد مولانا العلىّ الأعلى ، وإلى عبادته ، بصور مختلفة ، ولغات مختلفة » . . .

علة العلل هو القائم بأمور الحدود . والحدود محيّرون فيه . بعضهم يشكّون فيه ، ويُنقِصون من منزلته . وبعضهم يُغالون فيه ، ويجعلونَه المعبودَ الكلىّ . . .

فمن أقر له بالإمامة ، وبأنَّه لا حولَ له ولا قوّة إلا بالله ، زالت عنه الأمراض الدينية الحقيقية التى منها الموتة الأبدية . والله معلّ هذه العلة أى مبدعها . . . وهو العلىّ الأعلى ، بلا بداية ، ولا نهاية ، سبحانَه وتعالى عما يصفون . . .

هناك علّة عِلْم لا غير ، لا ذات نطقٍ ولا سمْع ، ولا شخص وقع عليه عيان ، ولا إحاطة بتحقيق مكان . . .

« آدم الصفاء الكلّى هو علة العلل ، ينتقل من صورة إلى صورة ، كما يشاءُ مُعايُّها الأحد الصمد . . . فعلّة العلل حاضر فى كلّ زمان ، موجود فى كلّ مكان . . . هو الإمام العظيم . ظاهر فى كلّ زمان ، هادٍ فى كلّ أوان . . . »

الرسالة ٣٦ — تأليف « النفس » — ثانى حمزة ، تُسمى « العقل » « علة العلل » . والله تعالى المعلّ لها . وتقول إن الله « أبدع لنا نورًا شعشعانيًّا جعلَه عنصرًا لانبعاثات العلوم الحقيقية ، وإنشاء الصور النفسانية . فهو العقل الكلّى والسابق الأوّل . ذو البدايات والنهايات . . . ذلك النور القائم فى كلّ عصر وزمان . . . ينقله المولى سبحانَه ، كلّ عصر وزمان ، باسمٍ وصفةٍ . . . »

وحمزة فى الرسالة ١٧ يعرّف الإمام وحدودَه : يُسميه « السابق الحقيقى » الذى أبدعه البارى قبل جميع الحدود ، وهو العقل الذى خلقَه الله قبل الأشياء كلّها ، الإمام الذى أُحصِىَ فيه كلُّ شىء . يَعرف العالمين ولا يعرفونَه . نصَب « التالى » من قِبَلِه . سُمّىَ تاليًا لأنه يتلوه فى العلم . وقيل له « أساس » المستجيبين . أى أصل بنايتهم . يجب عليهم طاعته ، ما دام هو طائعًا للمولى ، وللإمام الذى نصَبَه . والإمام سُمِّىَ « السابق » لأنه أول من سبق إلى معرفة المولى سبحانَه ، ونطق بالحقّ ودعا إلى توحيد الله . وسُمّى الثالث « الجدّ » لأنه جدّ فى طلب العلم من الإمام . والرابع « الفتح » لأنه يفتح باب العهد على المستجيبين . والخامس « الخيال » لأنّه يلوّح بعلمه ، بغير كشفٍ ولا تبيان . . . .

هؤلاء الخمسة مغيّبون عن عيون الجاهلين . من « العقل » يُؤخذ العلم ، وهو الوسيلة إلى رحمة الله . و « الباب » الذى يدخلون منه إلى توحيده . وهو يربى « الحدود » بالمعرفة والحِلْم . . . ينطق بتأييد الله روحانيًّا بلا واسطة . والحدود يتكلمون من علمه هو . . .

فمن هم هؤلاء الحدود ؟ روحانيين ! ومشخّصين !

الحدود

يمرّ قارئُ الرسائل ، فى مواضع كثيرة منها ، على أسماء وألقاب ، مختلفة المطابقة ، ملتبسة الأداء ، كما هو الشأن فى الرموز الباطنية . بعضها لنفس المسمى بصيغة المذكّر حينًا ، وبصيغة المؤنث حينًا آخر . وبعضها يجعل « العقل » أوّل الحدود الخمسة ، أو يجعل الحدود أربعة ، مستثنيًا العقل ، باعتباره فوقهم جميعًا .

فى اختلاف الترتيب هذا ، تُعطى النعوت للمرتبة دون الحدّ نفسه . فيقع الالتباس عند من تفوتهم معرفة الطريقة الباطنية ومواضع استعمالها . وإليك بعضها :

١ — « العقل » = العقل الكلىّ . الإرادة . ذو معة . السابق الحقيقى . عين الزمان . قائم الزمان . علة العلل . الأمْر . الإمام . الباب . إلخ . . . هذه الألقاب أطلقت فى زمن الحاكم على حمزة بن على بن أحمد .

٢ — « النفس » = النفس الكلية ، المشيئة ، ذو مصّة ، التالى ، حجة الإمام ، داعى الإمام ، صفوة المستجيبين ، هرمس ، أخنوخ ، إدريس ، يوحنّا ، إلخ . . . فى زمن الحاكم أطلقت على « المجتبَى » إسمعيل بن محمد ابن حامد التميمى (أبو إبرهيم) .

٣ — « الكلمة » = الجناح ، الجناح الربانى ، سفير القدرة ، صاحب السفارة والكلام ، بشير المؤمنين ، كلمتهم العليا ، داعى القائم . . . إلخ . . . فى زمن الحاكم أطلقت على « المرتضى » محمد بن وهْب القرشىّ (أبو عبدالله) .

٤ — « السابق » = الصغير ، الباب السابق ، باب حجة القائم ، الباب الأعظم ، الجناح الأيمن . . . إلخ . . . فى زمن الحاكم أطلقت على « المصطفى » سلامة بن عبد الوهاب السامُرّىّ (أبو الخير) .

٥ — « التالى » = الجناح الأيسر ، رابع الحدود ، آخر الحدود . . إلخ . .

فى زمن الحاكم أطلقت على « المقتنى » بهاء الدين ، على بن أحمد السموقى (أبو الحسن) .

جميع هؤلاء مشخّصون أو ممثّلون ، كما جاء فى « الحكمة » ، ليس فى زمن الحاكم وحسب ، بل فى جميع العصور . فإن الرسالة ٣٤ تقول بلسان حمزة : « لا يخلو منّى عصر » . بمعنى أنهم يتقمّصون الثوب البشرى كسائر البشر . كما تصفهم الرسالة ٣٢ . دون أن يعرفهم الناس .

ولهم أسماء ونعوت رمزية غير ما ذكرنا . كالناطق للعقل ، والأساس للنفس ، و « الأساسين » و « الأصلين » لكليهما معًا ، كما جاء فى الرسالة ٣٠ : « سبحانك يا مبدع العقل التام . . . وخالق النفس المنبعثة منه . . . الأساسين اللذين بهما قامت التدابير فى هذا العالم الجسمانى . . . الأصلين الأعليين الأنْوريَن » . وفى الرسالة ٣٧ : « النفس غير منفصلة عن العقل لقبول المادّة الإلهية ، فمن تغذّى وروِّى من علوم هذين الأصلين ، فقد أكل من ثمار الجنة ، وشرب من مائها ، بالحقيقة والمعرفة » . . .

إن الحدود الثلاثة الأخيرين يسمَّون أحيانًا « الجد » و « الفتح » و « الخيال » . وأحيانًا تضاف هذه الأسماء الثلاثة (الجد والفتح والخيال) إلى الحدود الخمسة المصنّفة فى هذا الفصل . فيصبح الجميع ثمانية . كما جاء ذكرهم فى الرسالة ٣٨ . وفى هذا تَشابُك محيّر لغير الراسخين فى علم التوحيد ورموزه . فمن هذه الرموز تسمية الحدود « آيات » أو « آيات التوحيد » أو « الآيات المحكمات » [كما فى الرسالة ٣٨] أو « الأشياء الحقيقية » . كما جاء فى الرسالة ١٧ : « الأشياء الحقيقية هم الحدود الذين من قبَل الإمام » . أما فى الرسالة ٦٧ فإن « الأشياء هم أهل التوحيد » . ومن ازدواجيّة بعض الألقاب أن العقل يسمّى « الحجة الكبرى » . والنفس « حجّة » العقل . كما أن بهاء الدين من الحجج . وقس على ذلك أسماء وألقابًا ونعوتًا وكنايات متكرّرة لا مجال لتعدادها .

فى المذهب أن الحدود لا يخلو منهم عصر . فلننظر فيمن هم فى عصر الحاكم بعد حمزة :

النفس :

هو أبو إبرهيم إسمعيل بن محمد التميمي ثانى الحدود . وجّه إليه حمزة كتابَ تعيين ، أو مرسومَ « تقليد » ، مدونة نسختُه فى « سجل المجتبى » ، جعله بموجبه خليفتَه . وسمّاه « صفوة المستجيبين » و « كهف الموحّدين » . يأمر وينهَى . ويولّى ويعزل . فقد قال له فيه : « فما رأيت فيه من صلاح وعملتَه فهو أمرى . وما نهيتَ عنه فهو نهْيِى . من خالفك فقد خالفنى ، ومن أطاعك فقد أطاعنى » . . . .

فى هذا الكتاب ، وفى غيره ، يذكر أنه صِهرُه . هذه اللفظة بمعنى القرابة المعنوية لا المصاهرة . والكتاب لا يحمل تاريخًا . ولكن فحواه تدلّ على أن حمزة عهد بالسلطة إلى التميمي وهو على أهبة الاعتزال .

والتميمي فى رسالته ٣٩ ، التى كُتِبَت على أثر « التقليد » المذكور ، يقول إن الإمام جعله « تاليَه، وحجتَه ، وقابل صورته ، ومودعَ سرّه وحكمته ، وأوجد منى حدودَ دعوته (الحدود الثلاثة الباقين) . . . فأنا النفس . ومنزلتى من إمام الهدى بمنزلة القمر من الشمس » . . .

وفى رسالته ٣٦ يقول إن قائم الزمان أمرَه بتصنيفه فوجد نفسه عاجزًا . لكنه تيقن أن القوّة منه واصلة إليه . فألّفه بما أيده به روحانيًّا . « فما كان فيه من صواب فهو منه . وما كان فيه من خطأ وزلل فهو منى » . . . وسمّى نفسه « ذا مصّة » لأنه يمتصّ منه العلم . هذه الرسالة تاريخها محرّم الثالث سنة ٤١١ هـ .

وله رسائل فى « الحكمة » . منها الرسائل ٣٧ و ٣٨ و ٣٩ . ومن نظمه « شعر النفس » [٤٠] فقد كان شاعرًا وعالمًا معًا .

يطلق عليه أحيانًا لقب « التالى » كما قال هو عن نفسه فى الرسالة ٣٩ . لهذا يقتضى تكرار الإيضاح منعًا لوقوع الالتباس عندما يطلق اسم «السابق» أو « التالى» فى الرسائل . فالتالى هو « النفس » عندما يُقصَد بالسابق «العقل» .

أما عندما يُقصَد بالسابق رابع الحدود الخمسة فالتالى، أى تاليه، يكون آخرهم، وهو بهاء الدين فى دعوة حمزة.

واستناداً إلى بعض المراجع، ومنها كتابات بهاء الدين، يكون إسمعيل التميمى لم يزل حيًّا سنة ٤٢٧ هـ.

الكلمة :

هو أبو عبد الله، محمد بن وهْب القرشيّ، ثالث الحدود، وأوّل الثلاثة الذين أضيفوا إلى العقل والنفس اللذين يسميان عند أهل الباطن السابق والتالى. وقد أشرت إلى الالتباس الذى يقع فيه القارئ عند محاولة التمييز بينهما وبين السابق والتالى، أى الرابع والخامس، عند الموحّدين.

معلوماتنا عنه نجدها فى الرسالة ٢١ المؤرّخة، « فى شهر شوّال الثانى »، حين رُفعت درجته وعُيِّن خلفاً لسلفه « المرتضى » المتوفَّى. إذ أن التقليد يقول : « .. هى المنزلة التى كانت للشيخ المرتضى قدّس الله سرّه. وأنت تسلمت علومَه وحدَه، ووارِيتَه تربتَه ولحدَه. وقد سلمت إليك جميع كتبه التوحيدية، وجعلتك مقدَّماً على جميع الدعاة والمأذونين والنقباء والمكاسرين والمستجيبين الموحّدين. لا أحد فوقك أعلى منك غير صفوة المستجيبين، أخى وصهرى (أى حليفى) إسمعيل بن محمد التميمى. فاستخِرْ مولانا سبحانَه، واخدمه حقّ ما يجب عليك من مذهب مولانا .. والطف بالدعاة وجميع الموحّدين، ومُرْهُمْ بالمعروف، وانهَهُمْ عن المنكَر .. ومُر النقباء برفع ما يكون من الأخبار إليك ... وأوصيك بالمستجيبين. كنْ لهم أباً شفيقاً، ومربيًّا رفيقاً » ....

ولم تتضّمن الكتبُ « التقليد » الأوّل الذى تشير إليه عبارة : « أمرتك به فى تقليدك الأوّل » التى وردت فى هذا التقليد (الثانى) الذى به رفعت درجته. أما « تقليد المقتنَى » [الرسالة ٢٢] ففيه ذكر للرضى « عماد المستجيبين وكلمتهم العليا ». وفى سنة ٤١٨ هـ. إشارة ثانية فى الرسالة ٦٥ إلى

« الرضى » عن ادّعاء « سكين » منزلتَه .

إن المراتب الروحانية الثلاث بعد السابق والتالى ، أو الناطق والأساس ، عند الباطنيّة ، قبل التوحيد ، اعتبر فيها « الجد » الحدّ الثالث ، كما جاء فى الرسالة ٤١ أى « الكلمة » . وكما جاء فى « شعر النفس » : (غدا « السابق » السامى إليه و « تاليه » مع « الجدّ » و « الفتح » « الخيال » الملاوم) . فللتمييز بين السابق عند الباطنية والسابق عند الموحّدين أضيفَ إلى هذا هنا نعت « السامى » وفى مواضع أخرى يضاف لفظ « الأوّل » .

السابق :

هوأبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السامُرّيّ ، رابع الحدود ، فى عهد الحاكم .

ليس فى الكتب المجموعة ، وهى ستة بين يدى الدروز اليوم ، ذكر خاصّ للسابق أسوةً بسواه ممن قُلّدوا من قِبَل حمزة . وهذا مما يثبت أن هذه الكتب الستة ليست مجموعة كاملة لرسائل المذهب وهى مكاتبات ، بينها بضعة منشورات ، أشبه برسائل بولس الرسول إلى أهل رومية وكورنثية ، وغلاطية ، وأفسس ، وفيلبّى . ورسائل بطرس ويوحنا وغيرهما .

ولكن لا شك فى أن « السابق » قُلّد السلطة بمرسوم لَمْ يُنْقَل إلينا . دليلنا فى « تقليد المقتنى » ، اللاحق ، عبارة « تالى السابق سلامة بن عبدالوهاب السامُرّيّ » . وقوله : عند تعيينه جناحًا أيسر « إذ كان الأيمن قد تقدّمك وهو سلامة بن عبد الوهاب (المصطفى) . . . ولا يكون أخذُك على المستجيبين خارجًا عما فى تقليد أخيك المصطفى » . . .

فى صدد التسميات الباطنية التوحيدية ، نستشفّ من خلال الرسائل أن « العقل » يرمز إلى أساس الوجود الإنسانى بانبثاقه من نور الله مصدر كلّ وجود . و « النفس » مصدر الحياة الروحانية والحسية ، منبثقةٌ من العقل ، علّة الوجود . و « الكلمة » ترمز إلى المنطق المنطلق من اتحاد العقل والنفس .

هنا نصل إلى المعرفة ، نور الوجود الإنسانى ، وهى تنقسم إلى « السابق » و« التالى » من العلم لإكمال المعرفة . فالسابق والتالى هما الينبوع الذى يجرى بالمعرفة الإنسانية .

لذلك تقول الرسالة ١١ :

« السابق هو دَكّةُ العالم. وعلومهم منه . إذ كانوا لا يعرفون فوقه شيئًا ... والمستجيب إذا بلغ علمَ السابق ومعرفتَه، حسب أنه بلغ الغاية والنهاية . . . الناطق يعصر علمَ التالى . . . » . يعنى بذلك أن التالى يكمل علم السابق .

التالى — « بهاء الدين » :

هو أبو الحسن على بن أحمد السموقى . خامس الحدود . « المقتنى » . اشتهر باسم بهاء الدين . وبالإضافة إلى الأسماء والنعوت التى أطلقت عليه ، فإنه يسمى نفسه ، فى الرسالة ٤٦ ، « لسان المؤمنين » و« سند الموحدين » و « الجدّ الرابع الأصغر » . وفى الرسالة ٤٨ « رابع الأعداد » و « مملوك الإمام » و « العبد الطائع » . وفى الرسالة ٤٩ « العبد المقتنى » و« الناصح » و « أصغر عبيد القائم » . . . .

قام بأعظم قسط من نشر الدعوة ، وكتب أكبر عدد من رسائلها، زاول أعماله فيها من سنة ٤١١ هـ ، حين قلده حمزة المرتبة الخامسة بين الحدود ، حتى سنة ٤٣٤ هـ ، كما يُستدلّ من الرسائل التى كتبها فى تلك السنة . لذلك فإن سيرتَه تستحقّ بعض الإسهاب لما تخللها من نشاط فى تنظيم الدعوة ونشرها بعد غيبة الحاكم وحمزة ، إذ أصبحت دعوة روحية صرْفًا ، فى حذر وخفاء تام . منذ ٤١٧ هـ حين وصلت إليه رسالة من حمزة باستئناف الدعوة بعد سكوته خلال ٧ سنوات من حكم « الظاهر » وهى سنو المحنة والاضطهاد .

قارئُ تلك الرسائل يدرك مبلغ تأثيرها ، ومتانة تعابيرها ، وبراعةَ كاتبها فى المناقشة والإقناع والاسترسال . وقد نوّه بهذه الموهبة حمزة فى تقليده [« تقليد المقتنى »] بقوله له إنه جعله من « الحدود العالين » و « الملائكة

المقرّبين» . . . «عند سماع لفظك ، وعجز تنميقك ، وإحكام تاليفك . . . فكأنّى نظرت إليك قديماً ، وعرفتك بالذكاء والفطنة . . . فاستحقّيت بذلك علوّ المنزلة . ورفيع الدرجة » . ثم يقول له إن درجات الحدود كانت قد تقدّمته فلم يمكن قطعُها أو تبديلها لتعلو فيها رتبتُه . لذلك جعله « الجناح الأيسر » لأنّ « الجناح الأيمن » كان قد تقدّمه (وهو السابق سلامة . . .) ؟

عن بهاء الدين لا نملك من المعلومات إلاّ ما تضمنته الرسائل. رسائله على الخصوص . وأكثرها بدون تاريخ . أما المؤرّخة منها فأسبقُها تحمل تاريخ السنة العاشرة من سنى حمزة ، أى ٤١٨ هـ ، فى شهر محرّم ، موجهة إلى الشيخ المختار وهى الرسالة ٤٥ [« تقليد لاحق » — الأوّل —]

ولعلّ الرسالة ٤١ أولى رسائله . كُتبت بعد غيبة الحاكم ، واستتار حمزة الذى ظل على اتصال بالمقتنى بهاء الدين ، يزوّده بتعليماته وتوجيهاته ؟ بها يقول :

« لما غابت صورة المعبود (الحاكم) . وامتنع قائم الزمان (حمزة) عن الوجود ، أيستْ كثيرٌ من النفوس . . و. و. . . خشيتُ أن يُخرِجهم الإياس . . . فتأمّلت كتاباً وصلنى من قائم الزمان . . . يرسم لى فيه . . . ويُجيز لى الكلام . . . ويأمرنى بإيضاح . . . فوضعتُ هذا الكتاب . . . »

فقد كان بهاء الدين على اتصال مستمرّ بحمزة ، ومعرفة بمقرّه السرّى سنين طويلة ، كما تدلّ الرسالة ٨٨ . وتاريخها على الأرجح سنة ٢١ من سنى حمزة (٤٢٩ هجرية) . وكان يتلقّى منه الأوامر والتوجيهات . ويكتب الرسائل المشجعة . يؤيد بها الدعوة ، ويثبّت على الإيمان . ويعد بانكشاف اللّمّة ، وزوال الغُمّة ، وانفراج المحنة . . .

أما سائر الحدود (النفس والكلمة والسابق) فقد اختفوا مع حمزة . فلم يبق سوى بهاء الدين يتصل بالموحّدين ويُعنَى بشؤونهم . على ذلك تدلّ مجموعة الرسائل أنه منذ « الغيبة » انفرد بالزعامة الروحية يأمر وينهى ، ويعيّن ويعزل ، فى أقطار كثيرة ، منها مصر ، وسوريا ، والعراق ، والعجم ، والهند ،

واليمن. إلخ . . . فى كل عمل يتعلق بشؤون الدعوة « التوحيدية » .

يلى الرسالة الأولى الموجهة إلى الشيخ المختار[الرسالة ٤٥] سنة ٤١٨ ﻫ . رسالة موجهة فى جمادى الآخر من السنة نفسها ، إلى « سكين » [الرسالة ٤٦] يمنحه بها لقب « الشيخ المرتضى » . ويكل إليه شؤون الدعوة فى : « جزيرة الشام العليا ، وحدها من الشجرتين ، إلى الأردن ، إلى ما ضامه من بلد الشراه . مع عمان ، وأرض البلقاء ، راجعًا إلى السواحل وكورها وجبالها شاملاً لعَرْقَة (قيل إنها طرابلس) وجُونِها . إلى رفنيّة وما ضامّها . مع حمص وأعمالها . آخذًا إلى حماة ، وتدمر ، مع سَلَمية منبت الزعفران... راجعًا فيما قبلها . حاويًا لدمشق وعملها ، مع بلاد البثنية وحوران » .

سكين هذا انقلب فيما بعد على رئيسه ، وأفسد فى المذهب . وأدخل فيه حشواً وتحريفاً ، لا نعلم مداهما حتى الآن ، مما استوجب النقمة والتنديد . وأصبح يُنْسَبُ إليه كلّ ناكث متريد . وينعتُ بأنه « سُكَيْنِيّ » .

وعين بهاء الدين أبا الكتايب [الرسالة ٤٧] فى البيضاء وجميع بلدان الصعيد . وعين « الأمير ابن يوسف أبا الفوارس معضاد » [الرسالة ٤٨] الساكن بفلجين ، داعيًا تابعًا لأمر سُكَيْن بقوله :

« أورِد وأصدِر فى مآربك عنه . . . فهو الضامن لعمارة هذه الجزيرة ، ومتى أردتَ مواصلتنا برسول ، فأنت ، بعد مشورة سُكَين واطّلاعه ، مسامَحٌ » . . . أى أن معضاد لا يخابر بهاء الدين مباشرةً ، بل بواسطة سكين الذى لُقّبَ بالشيخ « المرتضى صفوة الموحّدين» . هذا قبل انحرافه .

وتلاه « تقليد بنى جرّاح » الذى به عيّن بهاء الدين الأميرين جابر وزمّاخ ، ولدَىْ مفرّج . دون تعيين الأمكنة . ولا شك أن مثل هذا التقليد كثير لم يصل إلينا . فإن تنظيم الدعوة كان على نطاق واسع فى أقطار عديدة . منها ما كان خاضعًا للفاطميين ، ومنها ما كان خارج رقعة دولتهم الواسعة . فى بلدان بعيدة كالهند . كما تدل الرسالة ٦١ ، والرسالة ٥٣ الموجهة إلى الإمبراطور قسطنطين الثامن سنة ٤١٩ .

وقد كان لكلّ داع « مأذونون » ومساعدون . وكانت الدعوة منظمة تنظيماً مُحكَماً فى جهاز دقيق ، كما رأينا مثلاً فى إتباع الأمير معضاد لسكّين . والمخابرات تجرى بالتسلسل ، وإن كان معظمها مفقوداً ، تدل على بعضه عبارات واردة فى قليل من الرسائل . ولكن ما لدينا منها يثبت أن زمام السلطة ، فى غياب حمزة ، كان بيد بهاء الدين . ولا أخالنى أعدو الصواب إذا قلت إن جميع رسائل الكتابين الثالث والرابع من الكتب الستة ، هى من قلمه . تضاف إليها رسائل الكتابين الخامس والسادس ، ابتداءً بالرسالة ٧١ .

انتهت دعوة بهاء الدين فى السنة ٢٦ من سنى حمزة (٤٣٤ هـ) على أقرب تقدير . فإن رسالة « المواجهة » [الرسالة ٨٨] والرسالة ٩٨ كتبتا سنة ٤٢٩ هـ . والرسالة ٧٤ مؤرخة سنة « ٢٢ » أى ٤٣٠ هـ .

وكانت آخر رسائله ، التى لم يُسمَع به بعدها ، « منشور الغيبة » الذى يبدو بداهة أنه كان رسالة الوداع .

قيل فى غيبة بهاء الدين إنها « كانت محنة عظيمة على الموحّدين ، بانقطاع الدعوة ، وإبطال نصّ الحكمة ، وحصل عندهم بهذا ضعف عظيم فى نفوسهم » .

الفرائض

قال فولتير : « المذاهب تختلف لأنها من صُنْع الإنسان ، ولكن الفضيلة واحدة فى كل مكان لأنها من الله » .

هكذا المذاهب الإسلامية ، اختلفت فى قضايا الإيمان والدين، أو العقيدة النظرية وممارستها الفعلية .

فكان علم الكلام أو الفلسفة اللاهوتية ، وهى مزيج من المنطق والتحليل الفلسفى اللاهوتىّ ، مبنىٌ على قواعد وأساليب يصعب الأخذ بها وإثباتها علميًّا . إنه دخيل ، نشأ مع المذاهب ، لتبريرها أو لتسفيهها .

ورافق هذا العلمَ جموح وغُلوّ وابتعاد عن السُّنَّة . وهذا هو سرّ الخلاف فى معالجة مسائل شائكة لا نهاية للمناقشة فيها . من مواضيعها : العزّة الإلهية ، وعِلْمُها ، وعدْلُها ، وقدَرها ، والوعد ، والوعيد ، والمصير ، والحلال ، والحرام ، وشؤون الإمامة . . .

وقد نشأت الفِرَق بعد وفاة معظم الصحابة ، وعلى أثر الاستقرار السياسى ، والفراغ من الحروب وفتوحاتها الكبرى . وقيل إن تلك الفرق بلغت ٧٣ فرقة .

ورافق علم الكلام ممارسة الدين ، أو تطبيق النظرية الدينية على الحياة . فكان الشرع ، من أجل سلامة المجتمع ضدّ الانحرافات والقلق والحيرة ، ومن أجل طمأنينة الفرد وصيانة حقه .

كل ذلك ضمن نطاق الإسلام . وقد أتينا على ذكر بعض تلك المذاهب وفلسفتها ، توصُّلاً إلى تعريف مذهب « الموحّدين » الذى اكتنفه غموضٌ مُزْمِن ، عبر القرون . أردنا جلاءه اليوم ، خدمةً للمعرفة ، بسدّ فراغ فى المكتبة العربية .

وها نحن فى صدد الفرائض التوحيدية . وهى إضافة إلى الفرائض القرآنية .

إن هذه الازدواجية كثيرًا ما جرّت إلى التباسٍ فى تبيُّن الغرض منها ،

وصعوبة في تفسيرها ، حتى عند أصحابها .

فالصلاة ، في ظاهرها ، يرافقها معنى عميق . منه « أنها صلة بين المستجيبين والإمام » عند أهل الباطن . وأنها « صلة القلوب بالتوحيد » عند الموحّدين . وما أشبه بعض تفاسيرها بقول الشاعر « كولريدج » : « يُجيد الصلاة من يجيد المحبة » .

وللأعياد معنى الخشوع والطاعة . في ذلك تردّد إحدى الرسائل توبيخ إشعيا لليهود بقوله : « سَبْتكم مرذول عندي . . . إنما العيد عندي الطاعة لوصاياي » .

وتقول الرسالة : « إن الزكاة — في الحقيقة — تزكية القلوب ، وتطهيرها » . وكان للزكاة معنى آخر باطنياً أسقط « منْعاً عن أذيّة أحد من النواصب ، وقُرِئَ بذلك سجلّ على رؤوس الأشهاد بأن لا يُلعَن أحدٌ » من الصحابة . في ذلك يقول المقريزي إن حظْر السبّ لرفاق الرسول كان سنة ٣٩٨ ھ إذ منع الحاكم ذلك السبّ الذي كانت تمارسه الشيعة الباطنية .

وللصوم باطنٌ هو الرياضة الروحية والتعبد ، يقول الرسالة ٧ : « باطن الصوم الصمت » . إشارة إلى قوله تعالى لمريم : « فكلي واشربي وقَرِّي عيناً فإما تَرَيِنَّ من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً » . بحجة أن الآية السابقة تأمرها : « هزّي إليك بجذع النخلة تساقطْ عليك رُطَباً جَنِيّاً » . هنا ، في قول ابن عباس ، الصوم يعني الصمت ، وفي قول ابن عبيدة : « كلّ ممسكٍ عن طعام ، أو كلام ، أو سيْر ، فهو صائم » .

يقول المقريزي إن القائد جوهراً لما دخل مصر على رأس جيش المعزّ لدين الله فرَض مناسك الشيعة . فجعل صوم رمضان ونهايته وفْقاً لحسابهم الفلكي ، دون الصيام والإفطار لرؤية هلال رمضان . فكان الناس يبدأون الصيام مع جوهر ويفطرون معه . حتى كانت سنة ٣٩٨ ھ . وهي السنة التي كان فيها التحوُّلُ عن فروض الشيعة ومَنْعُ سب أعداء الإمام عليّ ، وأصدر

« الحاكم » منشوراً أجاز به الصوم لكلٍّ حسب قاعدته .

وللحجّ والجهاد كذلك جانب باطنيّ آخر يضاف إلى الظاهر ، كما تضاف إلى جميع الفرائض القرآنية « فرائض توحيدية » أخرى تضمنتها الرسالة ٦ وهي :

« أولها : وأعظمها صدق اللسان

وثانيها : حفظ الإخوان

وثالثها : ترك عبادة العدم والبهتان

ورابعها : البراءَة من الأبالسة والطغيان

وخامسها : توحيد المولى جل ذكره في كل عصر وزمان

وسادسها : الرضى بفعله كيفما كان

وسابعها : التسليم لأمره في السرّ والحدثان » .

هذه الفرائض تُكرّر في رسائل عديدة ، بصيغ مختلفة ، مجتمعة أو منفردة. وإن بهاء الدين وضع سبعة كتب عن هذه الفرائض ليس لدينا منها إلاّ جزءٌ أو كتاب واحد [الرسالة ٤١] به يشرح الفريضة الأولى . وهي الصدق .

إن مذهب التوحيد يوصي بممارسة الفرائض القرآنية . وإثباتاً لقولنا نقتطف من الرسالة ١٥ ما يلي :

« ليس كلّ مَن عرف باطن شيء وَجَبَ عليه تركُ ظاهره . وفي الأشياء ما لا يجب تركُ ظاهره . ولو عُلِمَ تأويله على سبعين وجهًا . منها الطهارة ، وباطنها البراءَة من الأبالسة ، وطهارة القلوب من محبّتهم . فلا يجوز لأحد ، ولا يستحسن العاقل إذا عرف باطن الطهارة ، أن يدخل الخلاءَ ويخرج ولا يغسل ، ويقول إنه قد عرف . فإذا ترك ظاهرها يتوسخ ويقع عليه اسم النجاسة . بل يجب على من عرف الباطن أن يزيد في طهْره ونظافة بَدَنه . . . كذلك أيُّ رجل عرف باطن ثوبه ولبسَهُ . وهو التقية والسِتْرة ، وإقامة الشريعة مع أهلها . واللطف بهم » .

هذه التقية التي كثر القول عليها ، يقول معها حمزة في الرسالة ٢١ :

« . . . واجمع شمْل الموحّدين . وكنْ لهم في نفاسهم ، وأعراسهم ،

وجنائزهم ، على السنّة » . . .

وفى الرسالة ٣٣ من أجل التجاوب ، فى الفرائض الدينية ، مع السنّة ، يوصى بقوله : « صونوا الحكمة عن غير أهلها . . . واستتروا بالمألوف عند أهله . . . فأنتم ترونهم من حيث لا يرونكم . . . وهم عما فى أيديكم غافلون . وعما اقتبستموه من نور الحكمة محجوبون . . . لقد جهلوا وعرفتم » . . .

لذلك جاء فى رسالة المذهب الأولى المسمّاة « السجلّ الذى وُجد معلّقاً على المشاهد » أن الحاكم أنعم على الناس « بإحياء سنن الإسلام والإيمان ، التى هى الدين عند الله . . . وبنى الجوامع وشيدها ، وعمّر المساجد وزخرفها ، وأقام الصلاة فى أوقاتها ، والزكاة فى حقّها وواجباتها ، وأقام الحجّ ، والجهاد ، وعمّر بيت الله الحرام ، وأقام دعائم الإسلام . وأيّدكم بما خصّه اللهُ من حكمته ، ليهديكم بها إلى رحمته ، ويحثكم على طاعته وطاعة رسوله . . . وفتح لكم خارج قصره دار علمٍ حوت من جميع علوم الدين وآدابه . . . فواظبوا على ذلك قبل أن تحقّ الحاقّة ، وتقرع القارعة ، ويغلق باب الرحمة . . . وقد أعذر من أنذر » . . .

وأنهيت الرسالة بهذه العبارات : « وصلى الله على محمّد سيّد المرسلين ، وخاتَم النبيين ، وسلّم على آله الطاهرين ، وحسبُنا الله ونعم الوكيل » .

بعد هذا الإيجاز ، لم يبق لى إلاّ مواجهة مكفّرى هذا المذهب بما قاله الإمام الشيخ محمد عبده ، فى كتابه « الإسلام والنصرانية » :

« إذا تعارض العقل والنقل ، أخذ بما دلّ عليه العقل ، وبقى فى النقل طريقان : طريق التسليم بصحّة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر إلى الله فى علمه . والطريق الثانية تأويل النقل ، مع المحافظة على قوانين اللغة ، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل . . . وإذا صدر قول يحتمل الكفر من مائة وجه ، ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حُمل على الإيمان ، ولا يجوز حملُه على الكفر » .

فى هذا القول المبين إيماءة إلى رحابة الإسلام لا تفتقر إلى دليل ،

وتسامُح فيه صميم أصيل . منهما انطلقت التأويلات الباطنيّة ، ونظريّات غُلاة الصوفية ، وتعدّدت المذاهب الإسلامية ، ومنها مذهب الموحدين الذى قال عن أتباعه فضيلة شيخ الإسلام الأكبر إمام الجامع الأزهر ، محمود شلتوت فى تصريح نشرته الصحف بتاريخ ١ آب ١٩٥٩ :

« لقد أرسلنا من الأزهر بعض العلماء كى يتعرّفوا أكثر على المذهب الدرزى . وجاءت التقارير الأولى تبشّر بالخير. فالدروز موحدون مسلمون مؤمنون» .

أما الزمن الذى نشأ فيه هذا المذهب ، كما ذكرنا من قبل ، فقد كان زمن نهضة فكرّية جامحة . جال فيها العقل جولتَه ، وصال صولته ، وأقبل الناس على العلم يسلطون الأنوار ، على كلّ خفىّ من الأسرار ، يستكشفون بها ما وراء كلّ عصىّ من الأستار ، حتى إن « الرشيد » أمر أن تُلحق مدرسة بكلّ مسجد ، وكانت مكتبة القاهرة تحتوى مئة ألف مجلّد ، وفى الأندلس سبعون مكتبة عمومية ، فى إحداها ستماية ألف مجلّد . ولم يخلُ بيت عربىّ فى إسبانيا من مكتبة خاصّة ، ومن أغرب ما يُروَى أن سلطان بخارى دعا إليه طبيباً أندلسياً شهيراً فأجابه أنه يحتاج إلى أربعماية جمل لحمل كتبه التى لا يستغنى عنها . كل هذا قبل عهد الطباعة .

ولم يكن التنافس بين العباسيين فى المشرق ، والأمويين فى الأندلس ، والفاطميين فى مصر ، مقصوراً على بسط السلطان وتوسيع رقعة المُلْك . بل عداهما ، وكاد ينصرف عنهما ، إلى نشر العلم .وها إنّ جامعة الأزهر لا تزال مزدهرة حتى يومنا هذا .

وامتدت يد العلم إلى حرم الدين وسننه . مما أثار غُلاة النقل على غُلاة العقل . حتى أصبح الرمْىُ بالزندقة من بداهات الغاضبين للدين . وعُدَّ كل مُحْدَث بِدْعةً فى رأى الناقلين . لم ينج من ذلك عدد من الأيمة العظام ، كالغزالى الذى أحرقت كتبه فى غرناطة وأشهرها كتاب « إحياء علوم الدين » . وغيره ، كابن تيمية ، والأشعرى ، والباقلاّنى ، والإسفرايينى ، والأصفهانى . وابن العربى ، والطبرى ، وغيرهم كثيرون .

المرأة

العرض فى اللغة هو النفس ، وجانب الكرامة والشرف ، وفى اصطلاح بنى معروف هو المرأة. صيانتها عندهم أعزّ من صيانة النفس ، يستميتون فى الدفاع عنها ، ويفاخرون بها الشعوب. كلّ عشيرة منهم فى زمن الفروسية ، وعهدهم بها قريب ، كانت تستهل النخوات ، عند خوض المعارك ، باسم « أخت » لها اشتهرت بالشجاعة والعفّة والذكاء، تختارها مباهية معتزّة فى استثارات « النشامى » للنزال والصيال . فيصيح خائض الغمرات منهم ، مسميًا : أنا أخو « فلانة » ؛ ثم يبيع النفس ولا يهمه أن يعود .

فى حرب اللجاه ضد إبراهيم باشا المصرى ، بعد انهزام الدروز ولحاق الجيش بهم إلى داخل الوعور حيث استأمنت العيال ، تصايحت النساء « لمن تتركوننا يا نشامى الدروز » . فارتدّوا على قلة عددهم ، وزهيد زادهم وعدّتهم ، بالسيوف يهزمون الجيش شرّ هزيمة وضعت « اللجاه » فى تاريخ الفروسية إلى جانب « ماراثون » و « ثرموبيلى » .

أكبر إهانة فى نظرهم التعريض بالعرض، تستوى عندهم فى ذلك نساؤهم ونساءُ غيرهم ، حتى الأعداء . ويوجبون لهن الصون والاحترام . حتى إن قاطع الطريق منهم ، كالسلاّبة الذى ثار على الفرنسيين فى عهد انتدابهم على لبنان ، وأطلق الناس عليه لقب « روبن هود » ، كان يرفع يده عن المرأة الفرنسية باحترام ويعفّ عما معها وهو يعلم أن رفقاء السفر ، حين رأوه ، خبّأوا محافظ نقودهم فى مطاوى ثوبها .

وإنى لأذكر كلمة سلطان الأطرش يوم كان قائداً للدروز فى ثورتهم على الانتداب ، حين رجانى المفوّض السامى الفرنسى وكلفنى السعى لإخراج النساء الفرنسيات من قلعة « السويداء » المحاصَرة الجائعة . وكنت آنذاك مديراً للمعارف هناك . قال سلطان : « نحن لا نحارب الفرنسيين ومعهم نساؤهم ،

أخرجهنّ لنريهم كيف يكون شرف القتال . فهُمْ لم يعفّوا عن قتل نسائنا» ... ملمّحًا إلى قصفهم بالطائرات المنازل على النساء والأطفال حين كان الرجال خارجها فى ساحات القتال . ثمّ زحف سلطان على سوريا وأصبح القائد العام للثورة السورية .

وكانت الحرب العالمية الأولى قد سجّلت لقومه ، بإعجابٍ وإكبار ، إيواءَهم عشرات الألوف من اللبنانيين الذين شرّدتهم المجاعة عن بلادهم إلى جبل الدروز (« جبل العرب » اليوم) الزاخر بالحنطة التى لم تمتدّ إليها يد الجيش التركى تهيّبًا واسترضاءً . ثم عادت تلك الألوف بعد انتهاء الحرب ، إلى ديارها المنكوبة ، سالمة الأعراض ، لم تتخلّف منها امرأة واحدة . بينما تزوّج من الدرزيات اللاجئات هناك عدد كبير .

يقول المؤرخون ، ومنهم دنيال بلسّ رئيس الجامعة الأميركية الأوّل فى بيروت ، عن الحرب الأهلية سنة ١٨٦٠ إن المرأة من خصوم الدروز كانت تمرّ فى معسكراتهم آمنةً . لا يُرفع إليها طرْف ولا يقع فى أذنها كلام . وهذا ما لا تستطيع أن تدّعيه جيوش أمم غربية تتبجح بمدنيتها ، ثم تتنكر فى الحروب لحضارتها . إنّها الشهامة العربية فى ذروتها عند بنى معروف .

فلننظر فى تعاليم المذهب بما يتعلق بالمرأة :

تحذّر الرسالة ١٥ :

« الحذر الحذر ، معشر المؤمنات ، أن تنظر إحداكنّ إلى رجل مؤمن أو مخالف إلاّ بالعين التى تنظر بها إلى ابنها أو أبيها . . .ولتعلم أن المولى جلّ ذكره يراها حيث كانت . وفى أيّة حالة كانت . . . إنّ إحداكنّ تستحى من جارتها أو تفزع من جارها إذا كانت فى حالة منكَرة . فكيف مَن لا تخفى عنه خافية . . . فالحذر الحذر ، معاشر المؤمنين والمؤمنات ، من ارتكاب الأهواء والفواحش والشهوات البهيمية واتباع المنكرات . . . فمن نهى نفسه عن الشهوات كان أفضل من الملائكة المقرّبين » . . .

وتوصى الرسالة ٨ :

« يجب على النساء المؤمنات أن لا يشغلن قلوبهن بغير التوحيد والطاعة لحدود الدين . . . لا يقرأ الداعى هذه الرسالة على امرأة وحدها . ولا فى بيت ليس فيه غيرها . ولو كانا مؤمنيَيْن ثقات . ليرفع الشك فيه . ويحسم امتداد الألسن إليه . . . وليكن نظر الداعى والمأذون ، عند القراءة ، إلى الكتاب الذى يقرؤه » .

هكذا يتشدد المذهب فى الحفاظ على الأعراض . وفى الحذر والتحوط لكل ماله علاقة بالمرأة . استبعاداً للشبهات . وتحاشياً للظنون . ولا يعرف التاريخ جماعة أحرص من الدروز على الآداب ، والتهذيب الجنسى ، وطهارة الأعراض ، وصراحة الأنساب عملاً بقوله تعالى : « واتَّقُوا الله الذى تَسَاءَلون به والأرحامَ . إن الله كان عليكم رقيباً » [الآية ١ سورة النساء] . وبقول الرسالة ١٥ : « من لا يغار على عياله فليس بمؤمن . بل هو خُرَّمىّ طالب الراحة والإباحة . راكب هواه وضلالته » . والخرّميون فرقة من القرامطة أتباع بابك الذى عاش قُبَيل ظهور القرامطة . وكان من اللاأدريين .

جميع الرسائل حافلة بالنهى « عن الفواحش والشهوات الدنية . . . وعن التهمة فى الأبدان ، والفساد فى الأديان » . . . تُردد أن الذين يصونون أنفسهم عن نزوات الغرائز ونحائز الأبدان ، يفوقون الملائكة طهراً وكمالا . وتزجر عن الشتم ، والقذف ، وهُجْر الكلام ، وشرب الخمر . فى الرسالة ٢٨ المنفذة إلى قاضى القضاة أحمد بن العوّام يأمر حمزة « بجلْد الزانى ، والسارق ، والقاذف ، وشارب الخمر » .

أما عفة المرأة فشرط لسلامة الزواج . وبتوليةُ الفتاة شرط لعقده . ويُفسخ إذا هى لم توافق عليه . والمرأة بعد ذلك سيدة المنزل . آمنة فيه من طلاق ينفرد به الزوج اعتباطاً ؛ ومن تعدد الزوجات الذى نهى عنه ، قبل حمزة ، المعزّ لدين الله جد الحاكم ، بروح التعاليم القرآنية ؛ وحرّمه المذهب ،

لاستحالة العدل معه ، وفقاً للآية الكريمة : « . . ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » [السورة ٤ النساء الآية ١٢٨] وهى جواب الآية : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة . . . » [الآية ٣ من السورة نفسها] والآية : « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » [الآية ٤ السورة ٣٣ الأحزاب] .

لا يحرص المذهب على تحريم تعدّد الزوجات ، وعدم إعادة المطلّقة إلى زوجها ، وحسْبُ . بل يحصر الزواج بين الموحدين . وينهى عن ابتغاء النساء بالأموال وعن الاستمتاع بهنّ ولو أوتين أجورهنّ فريضةً . أى أنه نهى عن أن يأتى الرجل امرأةً فيوافقها على شهور معلومة بدراهم معلومة . ويجعل ذلك فريضةً عن رضى منها ، فإذا تمّ ذلك وقبضت تلك الفريضة ، فإن أراد أن يصرفها صرّفها . . . وإن أراد جدّد لها فريضةً أخرى وأقامت عنده أو تأتيه لتمام تلك الفريضة !!! ينهى عن ذلك كلّه . ويأمر أنْ « كونوا محصنين غير مسافحين . . . وإلا فقد بطلت من قلوب الآباء صحّة الأولاد ، والتبستْ أنسابُ العباد » .

يبالغ فى الحصانة مبالغةً أصبحت مضرب الأمثال . فليس فى الأنام جماعة كالدروز ظلّت ألف سنة لم يُصبْها الخِلاط . ولنسائها ميثاق يفرض العفّة والصيانة و « التبرؤ من كل دنس ونجس وعيب ورجس . وتجنُّب الشهوات والشبهات » .

ويوجب على المرأة تأدية الرسالة الروحية . والمرأة حاضنة العقائد فى التاريخ . فقد كان لها دور كبير فى التوجيه الروحىّ . نستدل على المنزلة التى تبوّأتها فى صدر الدعوة ، بالرسالة ٥٢ إذْ يُنْبِئُ بهاء الدين أهل الوادى بقوله :

- « وقد سيّرتُ إلى جهتكم ابنتى سارة ، الكاملة العفاف والطهارة . ومعها شقيقى الأستاذ أبو الحسَن تقى » . ولعل سارة هذه ابنته « الروحية » أو ابنة أخيه!

أما حقوق المرأة فى الزواج والطلاق والإرث ، فإنها تختلف عن السنّة ، بقانون أحوال شخصية ، حديث ، سُنّ لدروز لبنان فى ٢٤ شباط سنة١٩٤٨ . وما لم يشمله هذا القانون يعاد فيه إلى المذهب الحنفىّ . والقانون توسّع فى

ما تنصّ عليه كتب المذهب . فإنه يحدد الأهلية للزواج بسن ١٨ للفتى و ١٧ للفتاة وإنزالهما سنتين بإذن الولىّ والمرجع المذهبى ، بعد التثبّت طبيًّا . ويطلق للفتاة حرية الزواج بعد بلوغها الحادية والعشرين ، بشهادة صحية لها وللخاطب .

لهذا القانون أحكام فى الطلاق . فيها مراعاة « لشرط الإمام » الذى يُعَدّ المرجع الأساسى للتشريع .

وفيها تكملة للشرط . منها أن التراضى فى الطلاق جائز . ومنها أن الزوجة تستطيع أن تطلّق زوجها إذا كان مصابًا بعلة تحول دون المساكنة ، أو بالجنون . أو إذا كان محكومًا عليه بالسّجن عشر سنوات ولو قضى منها خمسًا فى السّجن . أو إذا اختفى ثلاث سنوات انقطعت معها النفقة . أو خمس سنوات تباعًا ولو أنفق . أو كان حاضرًا ولم ينفق على الزوجة سنتين متتابعتين . وما إلى ذلك من تعويض يقدّره القاضى عن الضرر المادى والمعنوى .

فيما يلى نورد نصّ الرسالة المسمّاة « شرط الإمام » الذى يعطى ، على إيجازه ، صورة جليةً لتساوى المرأة مع الرجل :

« . . . والذى توجبُه شروط الديانة : أنه إذا تسلم أحد الموحّدين بعض أخواته الموحدات ، فيساويها بنفسه . ويُنصفها من جميع ما فى يده . فإن أوجب الحال فُرْقةً بينهما ، فأيهما كان المعتدى على الآخر ، فإن كانت الإمرأة خارجةً عن طاعة زوجها ، وعُلِم أنّ فيه القوّةَ والإنصافَ لها ، وكان لا بُد للمرأة من فُرقةِ الرجل ، فلَه من جميع ما تملكه النصف ، إذا عرف الثقات تعدّيَها عليه ، وإنصافَه لها .

« وإن عرف الثقات أنه مُحيفٌ عليها ، وخرجت من تحت ضرورة ، خرجت بجميع ما تملكه ، وليس لهُ معها شىءٌ فى مالِها .

« وإن كانت هى المخالفة له . وليست تدخل من تحت طريقته ، فله النصف من جميع ما تملكه ، ولو أنه ثوبُها الذى فى عنقُها .

« وإن اختار الرجل فرقتها باختياره ، بلا ذنب لها إليه ، فلها النصف من كلّ ما يملكه ، من ثوب ، ورَحْل ، وفضّة وذهب ، ودواب ، وما حاطته

يَدُه لموضع الإنصاف والعدْل » . . .

منذ أكثر من نصف قرن قبل هذا « الشرط » جمع المعزّ لدين الله ، وهو بالمنصورية ، شيوخَ كتامة إلى خلوة فى قصره . وبعد أن وصف لهم وأراهم كيف يعيش بالتنسك والقنوت منصرفًا إلى شؤون الرعية ، قال :

« . . . وإنى لا أشتغل بشىء من ملاذ الدنيا . . . فافعلوا يا شيوخ فى خلواتكم مثل ما أفعله . . . وأقبلوا بعدها على نسائكم . والزموا الواحدة التى تكون لكم . ولا تشرهوا إلى التكثير منهنّ ، والرغبة فيهنّ ، فيتنغصَ عيشكم ، وتعودَ المضرّة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهبَ قوّتكم ، وتضعفَ تحايزكم . فحسْب الرجل الواحد الواحدة » . . .

يبدو من هذا ، فى شأن تعدّد الزوجات ، وما يتبع الزواج من حقوق المساكنة والطلاق ، أن النهضة الإصلاحية سبقت دعوة التوحيد . وقامت ، فى تفرُّعها من السنَّة ، وضبط انطلاقها ، على ما اعتقَده المذهب تفسيرًا صحيحًا لأحكام القرآن ومغزى آياته . من دلائل صحته ، وانطباقه على حاضر المدنية فى تطورّها ، أن المسلمين قاطبةً يشمئزّون اليوم من تعدّد الزوجات. ومن بواعث اعتزاز الدروز أنّ مذهبهم كان رائد هذا التطوّر الصحيح ، منذ ألف سنة . واليوم تُسَنّ قوانين فى دول إسلامية تمنع التعدّد وتضبط شؤون الطلاق . ويقول « ضيا » شاعر الأتراك عن ضرورة التساوى بين الرجل والمرأة : « لا شكّ أن الخطأ فى تفسير القرآن كان من العلماء . . . فالتساوى ضرورى » . . وهؤلاء العلماء اليوم ، كما نرى فى مصر ، يقولون بهذا التطوّر .

أما عن صحة الأنساب عند الدروز وصيانة الأعراض فأكتفى بشهادة المؤرّخ الدكتور محمد كامل حسين فى كتابه « طائفة الدروز » إذ يقول :

« المرأة الدرزّية أعفُّ نساء العالم وأشدّهن طهارة ومحافظة على شرفها » .

وأخيرًا لا بدّ من القول بأن الشعوب اليوم لا تستطيع الانفراد بأية عزلة . حتى فى الشؤون الدينية .

الأخلاق

« الجودة » أي الصلاح ، في فلسفة المذهب ، ليست وسيلة لغاية وحسب . إنها حالة عقلية مستمرة في تطوير الروح الإنسانية نحو الكمال. وخلافاً لفلسفة اللذّة « الهدونيّة » ، تقوم هذه الجودة بترويض النفس على الحرمان والشظف و « قهر » الذات وتقويمها ، من أجل تجويدها .

إنها لا تعتبر الألم شرًّا في ذاته . بل إنّ الابتلاء بهامتحان للروح. فالخير والشرّ يقاسان بخواتيمهما . لأنه من العسير فصل طبيعة الأمور عن نتائجها .

لذلك يفرض المذهب على أتباعه الامتناع عن التمتّع بما أباحه القرآن الكريم للمؤمنين ، وما أجازه من ملذّات الدنيا الحسية . ويعتبرها مناقضة للفضيلة أو للجودة التي ينميها التعفّف . حتى إنّ المغرقين في « الجودة » ، كثيرًا ما يُسْتَعون مستغفرين ربّهم من طعام استطابوه، أو راحة استساغوها .

مقياس فضيلة الحرمان عندهم ، ما تشيعه من الخير في إيجابيّتها ، وما تنشره من النفع في امتدادها ، وفاقًا لفريضتهم الثانية من الفرائض السبع ، « حفظ الإخوان » . وهي ، عدا فائدتها للآخرين ، كما توحي فلسفة أفلاطون الأخلاقية ، مرتبطة بالمعرفة . « والفضيلة هي المعرفة » كما يقول سقراط . وهي عند أهل الباطن منبثقة من العقل الكلي .

يقولون إن اللذّة الحقيقية تنبجس من إشباع التشوّق إلى المعرفة : « لأنه بالمعرفة وحدها تدرك الحقيقة » كما يؤكد أفلاطون . و « الحكمة » تقول : إن المعرفة الحقيقية هي أسمى الغايات . بها ترتفع الحياة إلى أعلى مراتبها .

إن الرواقيين يقتصرون ، في تقدير الفضيلة ، على إيجابيتها وتطبيقها عمليًّا . أما « الحكمة » فتعتبرها ناقصة إذا لم تنبثق من المعرفة التي توجهها في امتدادها منها . بحيث تضلّ إذا انفصلت عنها . فتفقد الضابط العقليّ . وتحيد الرغبة بالروح عن مسالك الصواب .

المؤمنون بهذه الحكمة يتقبّلون الفرح والحزن ، واللذة والألم ، بالرضى والتسليم . ويعدّونها تجريبًا وامتحانًا لقوّة الإرادة والاحتمال والثباتِ على الإيمان فى مراقى تطهير الروح . ويخالفون الفلسفة « الأبيقورية » ، فى تجنُّبهم المسرّات . نابذين القول بأنها الهدف المنشود ، إذا لم تُسْفِر عن ألم . فإنهم يتقبّلون الألم آملين أن يُسفِر تغلبهم عليه عن نشوة روحية . وتبلغ المسرّة أوْجَهَا عند زوال الألم . وهم فوق ذلك يقصدون سعادة الحصول على الثواب الروحى . تقول فى ذلك الرسالة ١٨ : « من صبر على قضاء الله عبر به قضاء الله وهو مأجور . ومن جزع من قضاء الله عبر به قضاء الله وهو مأثوم »

يشهد لهم كلّ من يعايشهم ، بالعزوف عن المسرّات والملاهى ، وبالإعراض عن شهوات الجسد . فإنهم يعتبرونه عنصرًا غريبًا ، أو ثوبًا يجرى فيه امتحان الروح واختباراتها ، عبر الأجيال حتّى يوم الحساب . ولكنهم ينكرون العزوبية مردّدين : « لا رهبانية فى الإسلام » . ومع ذلك تقول الرسالة ١٥ : « لو أن رجلاً مؤمنًا عاش مِاية سنة ولم يتزوج ولم يعرف حرامًا لم ينقص ذلك من منزلته فى الدين شيئًا . وكذلك المرأة » . . .

أما وصاياهم الأخلاقية فأهمها الحث على الصدق والعدل . والصدق ، كما رأينا آنفًا ، أوّل الفروض .

فى ذلك تقول الرسالة ٩ :

« ألْزِمتُم بصدق اللسان ، وحفظ الإخوان . . . فمن لم يكن صادقًا بلسانه ، فهو بالقلب أكذب يقينًا ، وأكثر نفاقًا . واعلموا أن الصّدْق هو الإيمان والتوحيد بكماله . . . إن الله يعلم خائنةَ الأعيُنِ وما تخفى الصدور » .

وتقول الرسالة ٢١ : « احذر من الزيادة فى الألفاظ والنقصان منها . . . وقل الحقّ . ولا تخشَ إلا ذنبك » .

وتنهى الرسالة ٧٧ عن الزور والافتراء ، وتقول : « مَن قال فى أخيه ماليس فيه ، أو حرّف قوله ، أو حلل شيئًا مما حرّمه الإمام . . . فقد جحد الإيمان » .

وتضيف إلى ذلك رسالة « أزهار الرياض » فى « كتاب اليونان » :

« يجمع الكذب كلّ حرام ، ويجمع الصدق كلّ حلال . فالحذر الحذر من الكذب وفروعه . . . إن الخصال الرديّة هى : الكذب ، الزنا ، السرقة ، الشرّه ، البغضاء ، الحسد ، النميمة . . . والخصال الصالحة هى : الصدّق ، العفة ، الأمانة ، القناعة ، المحبة ، الوداعة ، الحكمة » .

ويوصى حمزة فى الرسالة ١٠ :

« على كلّ مستجيب أن يكون قولُه بالعمل ممزوجاً ، وقلبه بالرضى والتسليم مدْروجاً ، وبيته بالعدل والتوحيد منسوجاً . ومن دخل إلى التوحيد ميّالاً إلى الراحة والإباحة وكان مذهبُه قولاً باللسان بلا تصديق بالجنان ، كذّبته شواهد الامتحان . . . اصبروا وصابروا فى البأساء والضرّاء . . . والزموا ما أمرتكم به فى كتبى من صدق اللسان وحفظ الإخوان والرضى والتسليم ... »

بعد هذا اقرأ معى ما جاء فى الرسالة ٤١ :

« اعلموا معاشر الإخوان أن مولانا فرض عليكم صدق اللسان وحفظ الإخوان ، من سبع خصال توحيدية ، أولها وأعظمها الصدق ، وهو يفرّق بين الباطل والحقّ ، فلا تكونوا من الكاذبين ، ولا تكونوا ممن قالوا سمعنا وأطعنا ، وشربوا فى قلوبهم العجْل بكفرهم ، والعجل فهو ضد « العقل » . . . وقد علمتم بأنّ الإسلام والإيمان وسائر الشرائع والأديان ، لا تكمل إلاّ بالشروط والأعمال الصالحة . . . فمن كان يزعم أنه مؤمن موحد ، ولا يكون صادقاً فى أقواله ، محسناً فى أفعاله ، كان مدّعىَ التوحيد ، مستعملَ الشرك والتلحيد... إن صدْق اللسان هو التوحيد بكماله . . . فمن استعمل الصّدق رقىَ الدرجات وفاز بالخيرات . . . فالحذر الحذر ، معاشرَ الموحدين ، أن تخالف قلوبكم ما تنطق به ألسنتكم . فإن ذلك يُسخط قائمَ زمانكم » . ويقول شرحُها :

« إن الصدق خلّة من خلل الكرامة والأمانة ، وإنه الإيمان والتوحيد بكماله ، وهو عوض الصلاة ، لأنه صلة المرء بالمعبود » .

أما ما جاء فى الرسالة من التحفظ فى ما يؤذى المؤمنين ويُسلط عليهم

أعداءهم، وهم ضعاف فى وجه الكثرة المعادية، فهو من باب التقيّة لدفع الأذى والوقيعة مما لا تنفع معهما صراحة تُعدُّ فَجاجةً فى القول، وتَحدّياً بالمجابهة. والله لا يكلف المؤمنين كشفَ مقاتلهم. وقد قرأت للمقريزى تجنيّاً بالشك فى التزامهم الصدق مع غير الإخوان. مع أنه توخى إنصافهم فى سائر ما كتب.

على أن الرسالة ٣٥ تأمر بقول الحق دون خشية فإن: «مَن خشىَ من بشر مثله، سُلِّط عليه». وهو ما يردّده أتباع هذا المذهب.

وتخاطب الرسالة ٦٣ الأبناءَ بما يلى:

«أيها الولد، عصمك البارى من نزعات الأبالسة والشياطين، وجنّبك مهاوى الغاوين المارقين، وجعلك لأوامر ولىّ الحقّ متبعاً مُصَدّقاً... ولقُمُص العُجْب والاستكبار خالعاً ممزّقاً... وحماك من التلبّس بأهل التمويه والسخرية، الذين عكست نفوسَهم الآراءُ الخبيثة... وأوردتْها حياضَ العقوق... واستلذاذ المآلف البهيمية... فالنفوس النفيسة تتعالى عن الرذائل، آنفةٌ من الانسفال، منزّهة عن اللدد... فاقتد أيها الولد الصالح بمآثر أهل الدين والفضل، وزِنْ فعلك بقسطاس الحقّ والعدل»...

ومثل ذلك توصى الرسالة ٦٥ بقولها:

«أقيمْ بينهم منار الحقّ. وعرّفهم عَوار من شرد إلى الباطل والكذب... والطفوا بالصغار. وألْحقوهم، بالسياسة والتواضع، بمنازل الكبار. وانزعوا رداءَ التكبّر. وعلّموهم سجايا أهل التوحيد ومكارم الأخلاق... وصونوا كرامتكم... واستدركوا حفظَ أعراضكم بالرفق... وأقلعوا عن مصارع شهوات الكذّبة».

إن كتب الحكمة تفيض بمثل هذه الوصايا. وما أوردناه منها كان مثالاً موجزاً لها نُنْهيها بما ورد فى الرسالة ٧٨:

«يا إخوة، إن من يعتقد أن الله حقّ، يتحقق أنه لا يستخلف على العالم

إلاّ عادلاً منصفًا . . . فأنصفوا نفوسكم بالتفكّر بالحق ومعرفة أهله . . .
وتقرّبوا إلى الله بصالح الأعمال » .

وأخيرًا يتشدّد المذهب فى الحثّ على العدل ، بما يشبه جواب « كونفوشيوس » حين سُئِلَ : « هل من الحقّ مقابلة الشر بالخير » ؟ فأجاب : « كيف إذن تقابلون الخير ؟ قابلوا الخير بالخير ، والشرّ بالعدل » .

يقول الإمام علىّ كرّم الله وجهه : « الدين المعاملة » . والدروز اشتهروا بأنهم فى معاملتهم ألصق الناس بعقيدتهم . يترفّعون عن الدنايا . ويجتنبون المال الحرام ، ويبتعدون عن أبواب الموسرين والحكّام ، زهدًا فى متاع الدنيا ، والمكاسب المتّهمة بالابتزاز .

المعاملة والأخلاق عندهم مقياس الدين . على أن الزمان يدور بأهله ، ويصهر أشتاتَهم فى بوتقته . إنه عدوّ العزلة والتفاوت والانفراد . وقد دار بالدروز دورته ، وسار فيهم سيرته ، فهم اليومَ غيرُهم أمْسِ ، وغدًا غيرهم اليومَ . ولكنهم لم يفقدوا ما تميّزوا به من المناقب والسجايا . ومازالوا مبرّزين فى الأمانة والوفاء ، والكرم ، ورقة الشمائل والشمم ، بها « خشنوا ورقّوا » كما وصفهم « شوقى » . وهم فى صياصى جبالهم « ذادةٌ وقُراةُ ضيف » ، تحدثوا بروائع فروسيّتهم الركبان ، وتُروَى كالأساطير أنباءُ شجاعتهم فى كل مكان .

يشهد لهم بهذه المزايا ، على توالى الأجيال ، كلُّ من تعامل معهم ، وعرفهم ، وجاورهم بقلب سليم . حتى أصبحوا مضرب الأمثال فى ديار العروبة . ولكنهم لم يسلموا من افتراء مرضى القلوب من المتعصّبين ، وتزييف الجاهلين بالحدس والتخمين ، وتلمُّس المتلمسين ، ومحاولات المستطلعين ، فى وجه كتمان زالت أسبابه ، وتُغيِّرت أسوارُه وتخرّقتْ من البلى أبوابُه .

لذلك كان هذا الكتاب .